الشجـرة

البحث عن السعادة

L’arbre

A la recherche du bonheur

تأليف

ديديه روشا

Didier Rochat

نقله عن الفرنسية

م. ناجي تكلا

طبعة ٢٠١٩

اسم الكتاب: **الشجرة – البحث عن السعادة**

French Title: **L'arbre - A la recherche du bonheur**

المؤلف: **ديديه روشا** Author: **Didier Rochat**

نقله عن الفرنسية: **م. ناجي تكلا**

كمبيوتر: **چيمي منير**

جميع حقوق الطبع محفوظة. لا يمكن إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل بدون إذن مكتوب من الناشر، فيما عدا الدراسة الشخصية والبحث والنقد، أو عرض مادته في جريدة أو مجلة.

الناشر باللغة العربية:

أجابيه للنشر

٩ شارع تونس – المعادي الجديدة

موبايل: ٠١٢٧٢١٩٨٨٢٨

Arabic Publisher:

Agape Publishing House

9, Tunis Street, New Maadi, Cairo / Egypt

Mobile: 01272198828

محتويات الكتاب

الفصل	الصفحة
تقديم الكتاب	٥
تمهيد	٧
الجزء الأول: الإنسان السعيد	١٥
الجزء الثاني: الشجرة	٣٧
الجزء الثالث: الجذور	٥٣
الجزء الرابع: الجذع والأغصان	٧٩
الجزء الخامس: العصارة	٩٩
الجزء السادس: الأوراق	١١٣
الجزء السابع: الثمار	١٣٩
الجزء الثامن: الإنسان الروحي الناضج	١٥١
الخلاصة	١٦١
المراجع	١٦٣
إصدارات أجابيه للنشر	١٦٥

تقديم الكتاب

في كلمة الله، نجد أكثر الأمثال إيضاحًا عن الثمر المتكاثر والنمو الصحيح والطبيعي ليس فقط في الحياة العامة، بل والخاصة أيضًا.

يستند الكاتب ديديه روشا على المزمور الأول، فإن نتيجة السلوك بعيدًا عن الأشرار وعدم صحبة المستهزئين والارتباط بالرب وكلمته، يظهر حتمًا الثمر الروحي المتكاثر المرجو من الله فينا، فنكون "كشجرة مغروسة عند المياه، تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبل، وكل ما يصنعه ينجح". وكل هذا يحدث فقط عندما نلتصق بالله وبالعلاقة معه. كما يرى النقيض تمامًا عندما تُفقَد العلاقة مع الله. وهذا ليس ظلمًا من جهة الله، لكنه قانون إلهي، ففي الطاعة يعلم الرب طريق الأبرار ***(مزمور ١)***.

كصديق للكاتب، بعدما رأيت كل الصدق في حياة هذا الرجل والخبرة المؤلمة التي مرَّ بها وخرج منها إنسانًا أفضل، فإنني أتفق معه أن الارتباط بالله هو أساس الثمر الحقيقي.

إنني وبنعمة الرب أخدم منذ خمسة عشر عامًا في مجال الإرسالية والمناداة بالإنجيل، فأكتب إلى كل قائد روحي يريد أن يرى هذا التحول الحقيقي في حياته الشخصية وفي خدمته والحقل الروحي الذي استُؤمِن عليه أن هذا هو الحل الوحيد في النمو والثمر الذي يتوقعه الله منا: وهو وجودنا على مجاري المياه الروحية.

نرى هنا أن الكاتب أخذ لنا مثالاً عظيمًا عن حياة القائد الناجح مُشبِّهًا إياه بالشجرة المثمرة. ففي جذورها، فروعها، أوراقها، وأيضًا ثمرها لنا دروس مستفادة كثيرة.

كما أنوه أخي القارئ أن هذه الحياة الناضجة والمثمرة لا تخلو من مشوار الألم والتشكيل الروحي العميق في داخلنا. فلنا كقادة تشكيل من نوع خاص جدًا أو كما تصفه كلمة الله في سفر إرميا "دولاب الفخاري". فلكي أكون قائدًا ناضجًا وبحسب قلب الله، لابد أن أُوضَع على الدولاب وأن أمُرّ داخل الفرن الإلهي ولا يحدث هذا لإحباطي أو تفشيلي، وإنما بهدف أن أعود إلى الصورة الأصلية والأصيلة التي خلقنا الله عليها وتشوهت جراء تيهنا في الطريق.

لكن إرادة الله أن يُرجِعنا إلى مجاري المياه الحية لكي نعود وننبض حياة مثمرة مصدرها العلاقة مع الله ويكون الثمر حقيقيًا.

عزيزي القارئ، تعرَّض الكاتب إلى تشوهات عديدة وآلامات كثيرة في حياته، وبسبب هذا أخرج لنا الله من خلاله قائدًا ناجحًا يستطيع أن يساعدنا الآن لنكون نافعين في ملكوت الله.

أشجعك عزيزي القارئ أن تقرأ وتتعلم أكثر عن حياة القيادة الناجحة ناظرًا إلى شخص الرب يسوع المسيح وهو المياه الحقيقية والتي تُخرِج منك الشخص المناسب مشابهًا صورة سيدك.

أستودعك في محبة المسيح.

حبيب لطف الله

صديق للكاتب

تمهيد

أعطوهم أنتم ليأكلوا!

لقد رنت هذه العبارة في رأسي في صيف ٢٠١٦، حين تواجدي في الصحراء المصرية، بمناسبة مؤتمر مرسلي جمعَ قرابة الألف مسيحي من المناطق المحيطة. في تلك اللحظة، فقد أحسست بالتأكيد بنفس الشعور الغريب الذي أحسَّ به الرسل حين خاطبهم المسيح بتلك الجملة وهم يرون أمامهم نحو أربعة آلاف جائع... شعور بالعجز (متى ١٤: ١٦). ما الذي كان عليهم فعله والنهار يميل، ولم يكن لديهم من الطعام ما يكفيهم في حين يطلب منهم الرب أن يلبُّوا حاجة هذا الجمع الضخم؟ من المنطقي أكثر من أي أمر آخر أن يرسلوهم إلى بيوتهم! لكن ذلك معناه عدم الاعتبار لرؤية السيد الذي الأمور فوق الطبيعية بالنسبة له الوجه المخفي للأمور الطبيعية...

أما أنا، فقد وجدت نفسي غارقًا في لجة من الحجيج، وأنا الأجنبي الوحيد الذي لا يتكلم العربية، ما عدا المتكلمين الآخرين. كان بمقدوري أن أميز حرارة جمع ضخم من المؤمنين يسبحون الله، غير أنه كان مطلوبًا مني أن أتواصل معهم بغير مترجم شخصي. ما معنى هذه الكلمات إذًا التي وضعها الله على قلبي؟ كنت قد فقدت وظيفتي منذ أسابيع خلت. وإن كنت متواجدًا هنا، فقد كان ذلك بسبب دعوة غريبة داخلية دفعتني للسفر إلى مصر للمشاركة في هذا المؤتمر غير المسبوق. لقد دعاني الله للمجيء غير أني لم أدرك المشروعات التي سبق وجودها لي في الأشهر التالية لذلك.

قدمني منظمو المؤتمر على أني قس، وهو أمر كان يمثل نصف الحقيقة فقط، بما أنني كنت قد تركت خدمتي كراعٍ بالكنيسة منذ

عشرين عامًا مضت. ورغم ذلك، فحين كنت أتمشى خارج القاعة، كان الأشخاص يأتون بأعدادٍ كبيرة طالبين مني أن أصلي لهم؛ بعضهم لأجل مشاكل صحية، والبعض الآخر لأجل إيجاد شريك حياة مناسب، أو لمجرد التشجيع الروحي. وخلال المؤتمر الذي دام أربعة أيام، كانت حاجات الجموع المتعطشة تفوق قدراتي دائمًا، وقد غلبني إحساس بالعجز والإعياء.

بذلت قصارى جهدي لاستخدام ما أعرفه من لغة إنجليزية، مع معاونة بعض المترجمين المتطوعين إمكاناتهم اللغوية محدودة مثلي. حاولت أن أقدم رسائل شخصية تناسب كل حالة. غير أن الأمر فاق قدراتي حين وصلت إلى نهايتها. في هذا السياق، تخيلت بسهولة ما أحسَّ به تلاميذ يسوع عند نهاية ذلك اليوم، في مواجهة جمع مثقل بالهموم يعاني في نواحٍ كثيرة.

لحسن حظي، كأجنبي، كان من حقي أن أسكن في شقة غير ضيقة جدًا، في معية متكلمين آخرين مدعوين للخدمة. كانوا يسألونني "ما الذي جئت تفعله هنا؟" وكنت أجيبهم بأنني لست واثقًا تمامًا من سبب وجودي، إلا إذا كان الله قد دفعني للانضمام وأنني هنا لأبارك المصريين. وهو ما كنت أفعله حقًا. لكن كنت أنا أكثر المتشجعين، فإن جو التسبيح باللغة العربية وعدوى البهجة التي كانت تسري بين المصريين البسطاء كانت تحمسني حتى أحسست وكأنني أكاد ألمس السماء. كنت مأخوذًا بالترانيم ليس لأنني كنت أفهم كلمات لغة مجهولة بالنسبة لي، بل بالحركات والرقص وقفزات الفرح. لقد مكنتني هذه الخبرة من الخروج من شكوكي وتحفظي، وجعلتني أركز على الله. كان قلبي يفيض محبة وفرحًا لهذه الجموع المحتشدة. في نهاية المؤتمر، دُعيت للصعود إلى المنبر لأرقص وألوّح بالأعلام. عندها تلاشت كل تحفظاتي الذهنية كغربي. ويا للسعادة!

عند ذلك ولمراتٍ متعددة، دنا مني كثيرون وقالوا لي كلام عِلم. كانوا قد تلقوا كلمات نبوية بخصوصي سارعوا بإخباري بها. لقد لمسني ذلك حقًا وشجعني. بالإضافة إلى أن تلك المشاركات قد سمحت لي بالتعرف على مسئولين روحيين مصريين متعددين ظللت على اتصال بهم فيما بعد. ولقد كانت صداقتهم على وشك أن تظهر حاسمة وقادرة على فتح أبواب عديدة لي.

قرب نهاية المؤتمر، كم كانت دهشتي حين نقل لي المترجم ما قاله مسئول روحي مصري مجهول تمامًا بالنسبة لي: "في الشهور الستة أو الاثني عشر القادمة، سوف تختبر أشياء كنت تنتظرها منذ عشر سنوات!" وقد طلبت، على سبيل التأكد، أن تُعاد صياغة هذه الجملة لي كنوعٍ من التأكد من هذه النبوة. عند عودتي إلى سويسرا كنت أتساءل كيف ستخرج هذه النبوة إلى أرض الواقع وماذا سيكون معناها بالنسبة لي. فإن كثيرين هم مَن كانوا يتساءلون عن أعمق ما أصبو إليه.

منذ طفولتي، اعتدت أن أسجل في كراسة، كل الأقوال النبوية التي وُجهَت لي غير أني تعودت على إهمالها، بسبب يأسي من تحققها. لقد تلقيت دعوة في سن الحادية عشرة، وبناءً عليها قمت بدراسات لاهوتية غير أن الله أغلق طريق القسوسية. غير أنه عندها انفتحت لي نافذة على تعليم البالغين. ثم بعد ذلك بكثير حانت لي فرصة اكتشاف من خلال نبوة ما سأصير بموجبها رجلاً لله أكثر من كوني سأصير راعيًا!

إن عمري الآن قد جاوز الخمسين بقليل، وها أنا أمتهن مهنة تقع بين المسئولية الإدارية والاجتماعية. لقد أُضيفت دراسات عديدة تكميلية إلى دراستي الأساسية. إن عملي متنوع بقدر ما هو محفز. لكني مع ذلك يتعين عليَّ الاعتراف إن كل تلك الدبلومات قد ساهمت أيضًا في إخفاء نقص ثقتي بنفسي. إن هذه الألقاب لم تكن دومًا ذات نفع كبير

لي، خصوصًا في مواجهة موقف إنساني أو سياسي معقد، ولا كانت تقدم لي الدعم الضروري فيما يتعلق بتراتبيتي، فقد وجدت نفسي مضطرًا للاستقالة والانسحاب من وظيفة جيدة وقيّمة.

غير أن خطة الله لي لم تتوقف عند هذا الحد. ففي اليوم الذي كنت فيه أكتب استقالتي، دفعني لكتابة موضوع عن بولس. لقد أبهرتني تلك الشخصية. كنت أجدني في ملامحه كلاهوتي وكموجَّه لمؤسسة مرسلية عالمية. كان العنوان الذي أحس به هو: كيف تصبح قائدًا روحيًا – استلهامًا من حياة الرسول بولس.

إذ كنت أبحث عن معنى النبوة التي قيلت لي في مصر، فقد بحثت عن كلمات التشجيع التي تلقيتها وسجلتها خلال سنوات حتى وقعتُ على جملة تعود إلى خمس عشرة سنة مضت، تتحدث عن أبواب سيفتحها لي الله، وأنني سأصير قائدًا روحيًا، وأن مسحة نبوية سوف تنمو في داخلي.

كانت روحي تستعيد ذلك عندما أرى العلاقة بين تلك النبوات والكتاب الذي أكتبه. وهو ما حفزني لإكمال الكتابة والنشر. وكم زادت حماستي حين طُلِب مني أن يُترجَم الكتاب إلى العربية! كما كان ذلك مناسبًا، لقد فتح الرب بابًا لم أكن أجسر حتى أن أحلم به. لقد بدأ مفهومي للخدمة عندها يتغير، وانفتحت أبواب عديدة رويدًا رويدًا، كطريق غارق في الضباب الآخذ في الانقشاع تدريجيًا ليُبيِّن ما خلفه في بلاد وبانوراما أخاذة رائعة.

لقد مضت خمس عشرة سنة منذ استقر في قلبي أن أؤلف كتابًا عن الثمر الروحي واستراتيجية السعادة. لكني حتى تلك اللحظة لم أكن واثقًا من قدرتي على التطرق لموضوعات هكذا عميقة وشخصية.

لكني اليوم أتساءل إن كنت أنا مَن تسبَّب في تعطيل تحقيق هذا الوعد، باستغراقي في التجارب اليومية وبشكي في كلام الله عن حياتي.

لقد دُعيت للعودة مرة أخرى إلى مصر في الخريف في مؤتمر حول الشفاء، وقد كان الجو الروحي فيه مشابهًا جدًا لذاك الجو الروحي لمؤتمر الصيف. غير أن ما حدث لي خلاله قد تجاوز في كثافته وقوته كل توقعاتي. ذات مساء، ترجم لي أحد الأصدقاء كل العظات التي قُدمَت في الأيام السابقة وأشار لي بالاقتراب إذْ كان يتكلم مع سيدة طلبت أن نصلي من أجلها. فاقتربت وأحاطت بنا مجموعة نسائية ثم انسحبنا إلى مكان هادئ آمن.

عندما بدأنا في الصلاة لهذه السيدة، لاحظنا بشكل واضح عدم قدرتها على النطق باسم يسوع. صلينا لأجل تحريرها إذْ وجدنا أنفسنا في مواجهة روح شرير. كنت قبل ذلك بيوم قد حانت لي فرصة الصلاة لأجلها ولاحظتُ عندها بريقًا غريبًا في نظراتها. لكن عند الصلاة لأجل تحريرها رأيت في نظراتها بروقًا شيطانية تنطلق من عينيها كطلقات الرصاص. لم أكن قد اختبرت قط شيئًا كهذا من قبل. ومع ذلك فبدلاً من الخوف أحسست بقوة تملأني وبسلطان يُمنَح لي، لم يتركا للعدو إلا القليل من الفرص.

ثم بعد قليل من التصارع، ساد السلام على المكان. عندها أحسست في نفسي بلهيب حب مثل حب الأب لابنه. شجعني صوت داخلي أن أحتضن تلك المرأة، وهي إن كانت قبل ذلك لا يمكن أن تقبل حضنًا كهذا، إلا أنها الآن مستعدة لذلك. لقد ضمَّتني بقوة إليها وانسابت منها دموعًا ساخنة. في الغد، بعد راحة دامت نحو اثنتي عشرة ساعة لتسترد عافيتها وتتمالك مشاعرها، عادت هذه الشابة تطلب أن نصلي من أجلها مجددًا لكي تذوق وتختبر روح الله. قمت مع صديقي

المصري بالصلاة لأجلها واضعين عليها الأيادي. وبينما نحن نصلي لأجلها، راحت وكأنما في نومٍ عميق حتى ظننتها قد نامت حقًا. لكن ذلك لم يحدث قط. فإنها بعد خمس دقائق قد قامت وقالت لنا أنها قد عاينت يسوع، مرتديًا ثيابًا بيضًا وأنه قد تحدث إليها.

رغبةً منها في الاستمرار في هذه الحضرة الإلهية طلبت إلينا أن نصلي لأجلها مرة أخرى. ومرة أخرى تكرر ما حدث، لكنها هذه المرة كانت تحرك شفاها بلا صوت ومن الواضح أنها كانت تتحدث مع يسوع، ثم إذْ عادت إلينا روت لنا قسمًا مما رأته والتشجيعات التي تلقتها من يسوع شخصيًا.

لقد قلبت هذه الخبرة كياني رأسًا على عقب. وفهمتُ أن النبوة التي أُعطِيت لي قبل شهور خلت آخذة في التحقق، لكن أيضًا أن الله كان يضع تحولاً في داخلي معطيًا إياي قلب أبٍ. وقد ظللت على اتصال مع تلك السيدة التي كانت تناديني "بابا". غير أن تعجبي قد ظل شديدًا حتى فكرت كيف أن علاجًا نفسيًا وروحيًا ماثلاً عندنا في سويسرا قد يستغرق شهورًا في حين أنه يحدث في وقت قليل هنا في مصر: خلاصًا وشفاءً عاطفيًا وإعلانًا عن المسيح.

في أيامٍ قلائل، حُزنا على نصرة حاسمة ضد قوة العدو. من المؤكد أن ذلك لم يحدث دفعة واحدة. غير أن قدرة الرب الشافية كانت تعمل بشكلٍ مدهش.

تُرى هل السر في قرب عودة الرب أم أن المصريين يأخذون وعوده بشكلٍ جدي؟ لست أدري. غير أنني مجبر على ملاحظة أنه ليس الله الذي يرفض أن يعمل في عالمنا، بل السبب هو نحن الذين لا نمنحه المكان اللائق به.

عندما دُعيت لإحياء مؤتمر في مارس ٢٠١٨ في جنوب مصر لمدة يومين للقادة الروحيين، فهمت أخيرًا معنى دعوة الله التي وجهها لي منذ خمس عشرة سنة خلت. كنت قد تلقيت توجيهًا بكتابة كتاب حول "استراتيجية السعادة". غير أني حينها لم أكن فقط أشك في قدرتي على الكتابة، لكني أيضًا كنت أجد نفسي مُدَّعيًا إذا اقتربتُ من موضوع السعادة.

فيما كنت أستعد للمؤتمر، قادني الرب للحديث عن الشجرة وما تعنيه بالنسبة للنمو الروحي. لم يكن يخطر ببالي مدى التأثير الذي سيُحدثه ذلك لدى القادة الروحيين المصريين. بالإضافة إلى ذلك، إذْ كنت مضطرًا للمرور عبر وساطة المترجمين من الإنجليزية للعربية، كان صعبًا عليَّ أن أراجع دقة وصول الرسالة للمستمعين. لكن بالرغم من ذلك العائق، فإنني استطعت أن أرى عمل الله.

لقد لُمِسَت القلوب وسالت الدموع. وإذْ رأيت بعيني عمل الروح القدس، ساد عليَّ شعور بالسعادة والبهجة. أُعطِيَت لي نبوات جديدة مشيرة إلى أن الوقت قد حان لبدء مرحلة جديدة. لقد أدركت أنه ينبغي عليَّ أن أضع على الورق ما وضعه الله في قلبي وقد نضج من خلال التجارب التي خضت فيها في طريقي.

الجزء الأول: الإنسان السعيد

"طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الأَشْرَارِ، وَفِي طَرِيقِ الْخُطَاةِ لَمْ يَقِفْ، وَفِي مَجْلِسِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لَمْ يَجْلِسْ. لكِنْ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ مَسَرَّتُهُ، وَفِي نَامُوسِهِ يَلْهَجُ نَهَارًا وَلَيْلاً. فَيَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَغْرُوسَةٍ عِنْدَ مَجَارِي الْمِيَاهِ، الَّتِي تُعْطِي ثَمَرَهَا فِي أَوَانِهِ، وَوَرَقُهَا لاَ يَذْبُلُ. وَكُلُّ مَا يَصْنَعُهُ يَنْجَحُ. لَيْسَ كَذلِكَ الأَشْرَارُ، لكِنَّهُمْ كَالْعُصَافَةِ الَّتِي تُذَرِّيهَا الرِّيحُ. لِذلِكَ لا تَقُومُ الأَشْرَارُ فِي الدِّينِ، وَلاَ الْخُطَاةُ فِي جَمَاعَةِ الأَبْرَارِ. لأَنَّ الرَّبَّ يَعْلَمُ طَرِيقَ الأَبْرَارِ، أَمَّا طَرِيقُ الأَشْرَارِ فَتَهْلِكُ." [1]

إن المزمور الأول يقدم لنا المزامير من خلال نص رمزي ومملوء حكمة. فمنذ الآيات الأولى، يجد القارئ نفسه في حقل الحكمة، وهو ذات عنوان كتاب الأمثال. يجد الإنسان نفسه أمام اختيار إما الحياة أو المجتمع، إما أن يظل تحت عيني الله، أو أن ينفصل عنه. ومن الواضح أن هذين الاختيارين ليسا متساويين. فالطريق بدون الله هي طريق خاطئة، وربما إجرامية. إن الإنسان بدون الله يبدو رديئًا، مستهزئًا، يقوده سلوكه إلى الدينونة. إنه شبيه بالقش، بلا أساس، بلا حياة كالعصافة التي تذريها الريح.

على النقيض من ذلك، هو الرجل المستقيم، المُشبَّه بالشجرة كما يصوره المفهوم الشعبي والشعري. إنه ثابت مستقر في جميع الظروف. تكمن قوته وطاقته في جذوره وفي قربه من مصدر الحياة الذي يمده بكل ما يحتاج إليه. هكذا يصير ناجحًا، مدهشًا، وسعيدًا في كل ما يعمل.

إن هذا المزمور يربط السعادة بالنجاح. ليس مجرد شكل من النجاح المادي أو مجرد الصحة الجيدة. بل بالثبات الروحي ومتانة حياة

---

[1] المزمور الأول.

ملتصقة بالله. يثبت المزمور العلاقة بين نوعية الأوراق والثمار مع توافر المغذيات المستخلصة من التربة. إن المياه المجددة والمغذية توضع بالتوازي مع الغنى المستخلص من حكمة روحية عميقة ومن تأمل دائم وعميق.

إن ملامح الشجرة الناضجة المروية بشكل دائم هي أن تعطي ثمارها في حينها وأن تحافظ على أوراقها في حالة ازدهار دائمة. إننا نجد أنفسنا بصدد مشاعر طازجة لحب دائم التجدد قادرًا على تسديد احتياجات الآخرين بشكل مستمر. فإن الشجرة المزدهرة بما أنها منفتحة على أشعة الشمس، تخترن البركات السماوية وتجعل الآخرين أيضًا يستفيدون منها.

السعادة إذًا ليست أنانية ولا النجاح في التملك. إن النجاح في هذا المزمور مصدره انفتاح الشجرة على محيطها وبذلها نفسها كاستجابة للكلام الإلهي المتعلق بحياتها. بفضل ثباتها وثبات مصدر غذائها، فمهما حدث، تستطيع هذه الشجرة أن تواجه وتمتص كافة الضربات. إنها تحيا بانسجام مع محيط حياتها التي شهدت ميلادها وتجد مكانها بين الأحياء. هكذا تنجو من الدينونة الإلهية وتتمتع بالسعادة في هذا العالم الحاضر. إنها تشبه البار الذي يصفه يسوع بهذه الكلمات:

"اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ، بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ." (يوحنا ٥: ٢٤)

النجاح، عكس الفشل؟

كلما تقدمت في العمر، كلما مددتُ جذوري الشخصية والثقافية والعائلية والاجتماعية والروحية. تنمو أيضًا علاقتي بالله وتتقوى، وكذا

علاقاتي مع الآخرين. إنني أجد متعتي في أن أغوص في أعماق نفسي حيث أكتشف حدسًا ومشاعر ونوع من الامتلاء كنت أجهله حتى هذه اللحظة. أجد سعادة وسلامًا متزايدين. إنني أجد متعة في الإصغاء للنبوات لأنها تضعني في الحضور الإلهي الكامن فيَّ والآخذ في النمو.

إنني لا أدَّعي إني قد عرفت السعادة أو النجاح المطلق. إن ببساطة منطق المزمور الأول يجعلني أتساءل عن معنى النجاح الذي يصفه. أي أن الإنسان الراسخ والثابت في الله ينجح في كل ما يصنعه. للوهلة الأولى أجد أن هذه ليست حالتي. إن لديَّ انطباع بأنني قد جُزت في عدة تجارب وقد تراكمت في داخلي مواقف عديدة صعبة وأنني قد اختبرت الفشل مرارًا كثيرة.

سواء على مستوى حياتي المهنية أو الشخصية، ألم أفشل في عبور لحظات شك عديدة وآلامًا مؤثرة وعاطفية؟ لقد اختبرت معنى الرفض والتهميش في المدرسة وخلال طفولتي. فيما بعد اختبرت معنى أن تُسرَق مهنيًا، مما دفعني إلى هجر الخدمة الرعوية. لقد عشتُ فترات بطالة عديدة عقب استقالة اضطررت إليها، كانت من بين عدة آلام قد تركت آثارها المؤلمة في نفسي.

كثيرًا ما كانت الحياة بالنسبة لي مرادفًا لكلمة صراع. كان عليَّ أن أصارع لأنجح دراسيًا، كان عليَّ أن أعمل وأن أجاهد لأحوّل أحد عيوبي إلى أحد مزاياي. كنت غالبًا مهمشًا بسبب عدم إجادتي لغة زملائي وقد تعلمت أن أتجاوز ذلك الاختلاف وأن أستفيد من قدراتي اللغوية.

تعودتُ أن أدوّن كل شيء بسبب عقليتي التحليلية وبسبب ضعف ذاكرتي مما ساعدني على منهجة أفكاري. غير أني لا أجيد التعبير

باللغات الأجنبية وتنقصني الكلمات، فحين أدخل في حوار أبذل أقصى جهدي لكي يفهمني الآخرون. هكذا، تعلمت أن أنهض دائمًا. مثل ذلك اليوم وأنا بعد طفل، وبعد أن كنت ألعوبة الفصل، تجاوزت خوفي وعاري ورددت الضربات الموجهة لي.

لقد قوَّتني هذه التجربة وغيرت من صورتي لدى الآخرين. بدأت أصير محترمًا، ونشأ بيني وبين آخرين صداقات دامت طويلاً. كنت في سبيلي لتجاوز نقاط عجزي رغبةً مني في أن أحيا. صرت زعيمًا ورجلاً ذا عزيمة.

من جهة أخرى، في سن الحادية عشرة، وخلال معسكر مسيحي، دعاني الله لتبعيته. كنت مستلقيًا في فراشي بلا نوم، وسمعت صوته بوضوح. دارت بيني وبينه مناقشة دارت حول حقيقة أنني كنت أعتبر نفسي مسيحيًا فعلاً. غير أن ذاك الصوت أصرَّ أن أقوم بخطوة إضافية؛ فاستجبت. في اليوم التالي تكلمت مع مشرف حجرتي وصلينا معًا. لقد تغيرت حياتي بعمق في ذلك اليوم. بحسب ما قاله أهلي، فإن هذا الاختبار لم يغير فقط من أفكاري، بل وطموحي العميق وشخصيتي. لقد كنت غضوبًا مندفعًا وأصبحت أكثر اتزانًا على المدى الطويل. بدأت أقرأ الكتاب المقدس وأصلي يوميًا. بدأت أؤلف ترانيم أوحى لي بها الروح القدس وبدأت أتطلع للمستقبل.

غير أن هذه الخبرة لم تنبئني بالآلام المقبلة، وبأنني أصطدم بما هو أقوى مني. لم أكن بطبيعتي العقلية وإرادتي القوية أدري الكثير عن الحب والمشاعر. كانت الحياة بالنسبة لي صراعًا مستمرًا. ولكي أنجح كان عليَّ أن أعمل بقوة وأن أكافح باستمرار. هكذا، واجهت الفشل والعداوة والحياة بصفة عامة. وهكذا من خلال هذه الفترات الصعبة والخاوية، اختار الله أن يعمل في قلبي.

تعلمت أن أترك جانبًا الأمور التي أظن أنني واثق بها، وأن أقبل كوني مختلفًا عن الآخرين وأن أفيد من الفرص التي تقدمها لي الحياة. نادرًا ما انفتحت لي الأبواب في حياتي المهنية من تلقاء نفسها. كان عليَّ أن أواجه الشك بشكل منتظم، وأن أخلق الفرص وأن أقرع على الأبواب، على أمل أن تنفتح لي الفرص في الآفاق. كانت طاقاتي وقواي تكمن في تقلبي لنفسي ولتفردي.

منذ شبابي، علمني الله أن أعتمد عليه، وأن أقبل حالتي وأن أشكره رغم الصعوبات التي كانت تواجهني. لقد صار التسبيح والحمد مصدر قوة يومية لي.[٢] تعلمت ألا أستسلم قط، حتى إن كنت لا أدري مخرجًا لما أنا فيه. كان الله ساهرًا عليَّ، وفتح لي فرص حيث لم أكن أتوقعها قط.

في بداية دراساتي اللاهوتية، يئستُ من تعلم اليونانية. كانت درجاتي سيئة إلى حد جعلني أفكر في إسقاط المادة بأسرها. في عطلات منتصف العام، كنت أتدرب يوميًا وأقوم بترجمات كل أسبوع أرسلها إليَّ أستاذي ليصححها. في كل مرة، كانت النتائج غير مُرضية والدرجات ضعيفة غير كافية. ورغم ذلك قررت أن أدخل امتحان اللغة اليونانية وأجرب حظي، خوفًا من ألا تتاح لي الفرصة في السنة التالية. قدمت ترجمتي وكان الانطباع عنها متوسطًا. في الامتحان الشفوي همس أستاذي في أذني: "أنت تعرف النص، أليس كذلك؟" كان الله قد استجاب لي بأن ألهمني الفهم الصحيح للفقرة.

في لحظة أخرى حاسمة في حياتي، لمست بالقدر الكافي يد الله الخفية. في الوقت الذي كانت فيه أبواب الكنيسة المُصلِحة مغلقة بشكل

[٢] م. كاروثرز، من السجن إلى التسبيح، ١٩٨٤.

نهائي، وجدت نفسي في حالة من التساؤل العميق والمراجعة. لقد كان بإمكاني السفر للخارج لكي أمارس خدمة رعوية بأي ثمن. غير أنني أمام الأبواب المقفولة، فضَّلت أن أجد ما لدى الله من خطط حياتية أخرى بالنسبة لي. عندها اجتزت في فترة عصيبة جدًا من حياتي. عشت فترات من الشك والأرق، متسائلاً كيف سأوفي حاجات أسرتي المادية ومسئوليات أسرة وطفلين في سن صغيرة.

أخيرًا قررت أن أدرس دراسات عليا في الإدارة العامة. كان من شروطها أن يكون لدى المتعلم تعليمًا جامعيًا مثل الذي كان لديَّ. اجتزت امتحانات القبول، لكن ماذا كنت سأفعل بخصوص تسديد احتياجات أسرتي المادية؟ كان اعتمادي على الله الذي سبق فرأى كل ذلك.

قبل عيد الميلاد بقليل، تلقيت مكالمة قالت خلالها محدثتي جملة جعلتني أقلق كثيرًا: "لقد تم قبولك، غير أنه تبقَّى شيء صغير لنتأكد بعد منه." وضعت السماعة وقد تملكني قلق شديد من تلك العبارة الملغزة. عاودت الاتصال بها ثانيةً لكي أفهم أكثر، فكان جوابها: "نحن ندرس إمكانية إعطائك منحة." يا للمفاجأة! لم أكن حتى قد قُدّمَت عليَّ منحة، لكن الله كان يجيب على حاجاتي المادية.

بما يمكن أن تقيس النجاح؟ هل نتصور النجاح بنفس الطريقة؟ بناءً على خبرتي الخاصة، لا يمكنني إلا أن أعترف بحقيقة ما قيل أن الله يسهر على حياة مَن يطيعونه. أما أن أتجاسر وأقول أنني أسبح في بحرٍ من السعادة، فهذا ما لا أجسر على قوله. أما بخصوص تعريف السعادة، فإنني أظل حائرًا مرتبطًا أن أُنسبه إلى نفسي. مع ذلك، فإنني أسعد في كل مرة أرى الله يتحرك في حياتي وحولي فأجدني أقترب من حالة التطويب التي يتحدث بها المزمور.

السعادة وما يُقال حولها

لقد كُتِبَ الكثير عن السعادة وكيفية الوصول إليها. لقد توقف الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس عند ذلك الأمر كثيرًا. لكن الأمر يعود إلى ما قبل ذلك بكثير، فمنذ القدم وهاكم بعض الأمثلة[٣]:

"إن الإنسان يحمل في ذاته بذور السعادة وبذور الشقاء."
(سوفوكليس)

"تنبع السعادة من الشقاء، فالشقاء كامن في رحم السعادة."
(لاو- تسو)

بينما يسعى الجميع لبلوغ السعادة، إلا أنها ليست شيئًا أو حالة يمكننا أن نخلقها أو نثيرها بأنفسنا. إن معناها نفسه غامض. لأننا كلما حاولنا أن نصفها أو أن نمسك بها، كلما هربت منا أكثر. إنها تتجاوز بكثير كونها عكس كلمة شقاء. فمن الممكن أن نكون أشقياء بعمق، لكن مع ذلك نستطيع أن نحيا لحظات من السعادة المكثفة. لأن السعادة تنبع من حالة النفس. كما أننا نجدها مرات كثيرة حين لا نتوقعها إطلاقًا.

هكذا، فإن السعادة هدف شخصي يسعى أغلبنا للوصول إليه بأي ثمن. إنه ليس متاحًا هكذا بسهولة. لكن وكما يقول المثَل ذاته، فكثيرًا ما يكون الطريق نفسه جوابًا لسؤالنا عن السعادة.

"ليست هناك طريق نحو السعادة، السعادة هي الطريق ذاته."
(حكمة شعبية)

[٣] بحسب مراجع متنوعة ومنتشرة على الإنترنت.

"إن العمل في ذاته لا يجلب السعادة، غير أنه لا توجد سعادة بغير عمل." (ويليام چيمس)

"السعادة هي مكافأة مَن لا يذهبون بحثًا عنها." (آلان[٤])

إن السعادة لا تُشترَى ولا بكل أموال الدنيا. المشغوليات الكثيرة، خصوصًا المادية، تجعلنا نتجاوز ما هو أساسي. لابد أن يتغير المثال الذي نضعه نصب عيوننا حتى نصل إلى السعادة. لهذا تضع التطويبات أمامنا المساكين والودعاء والجياع ***(متى ٥: ٣-١١؛ لوقا ٦: ٢٠-٢٦)***، معلنةً أنهم الأقرب لأن ينالوا ملكوت الله.

طوال حياتي كان عليَّ أن أواجه محدوديتي وعيوبي. كثيرًا ما يئست من إمكانية تجاوزها. حاولت لسنين عديدة أن أخطط لحياتي. كان سعيي للسيطرة على الأمور وسيلتي لضمان النجاح. كنت أتوقع وأوازن تدخلاتي حتى أتجنب ظهور مشكلة ما. ظننت أنني بهذه الطريقة أستطيع الهروب من الفشل ومنع أي خطوة خاطئة. لكني في الحقيقة لم أكن محميًا من التجارب.

مما لا شك فيه أن حُسن التوقع واليقظة في الأمور المالية والعاطفية وبشكل عام، قد ساعدتني على اتخاذ قرارات جنبتني حوادث لا داعي لها. لكنني احتجت لسنوات حتى أدرك أن كل مرة حاولت فيها أن أمسك بزمام حياتي فإنني قد تجاوزت أيضًا لحظات من السعادة. كانت تنقصني الثقة بالنفس ولم يكن بمقدوري أن أعبّر عن الحب أو أوصله لطرفٍ آخر. وكان ذلك السبب في فشلٍ متكرر: سواء في خطواتي الأولى كراعٍ، أو في انفصالي عن خطيبتي الأولى. غير أن الله لم يكن قد تركني بعد أو يئسَ مني. إنه لا يزال يعمل في قلبي ويعلمني كيف

[٤] اسمه الحقيقي إميل-أوجست شارتييه.

أحيا. منذ وقت، يقودني في مواقف معقدة بشكل متصاعد. إنه يشجعني على تنحية ثقتي الذاتية جانبًا وما تبقى من رغبتي في أن أسيطر على الأمور. إنني أتعلم إذًا شيئًا فشيئًا على أن أرخي الزمام من يدي. لقد تعلمت معنى العبارة التي تقول: ***"حِينَمَا أَنَا ضَعِيفٌ فَحِينَئِذٍ أَنَا قَوِيٌّ." (٢ كورنثوس ١٢: ١٠)***، من بولس الرسول الذي أحبه والتصقتُ به من خلال دراستي عنه.

كانت أكبر لحظات سعادتي هي المرات التي كان يتعين عليَّ فيها مواجهة ما لا أتوقعه؛ حينما رأيت يد الله تتدخل وتحل أمرًا معقدًا. كما أنني وجدت بعض السعادة في أمور يومية. على سبيل المثال، خلال رحلتي الأخيرة لمصر، خلال اجتماعٍ ما، في حين كنت أستمع للمتكلمين في ذلك اليوم، اقترب مني طفل صغير رويدًا رويدًا حتى جاء وجلس على ركبتي. لم يكن بإمكاني التواصل معه بلغته، لكنه أحسَّ بأنني موجود له وبأنني أستطيع أن أقدم له بعض الحب. أما بالنسبة لي فقد ملأني هذا الأمر بالرضا والسعادة.

"إن السعادة فراشة، إذا طاردتها، لا تدعك تمسك بها أبدًا، لكن إن عزمت كيف تجلس بلا حراك، ستأتي وتحط ربما على كتفيك يومًا." (نثنائيل هوثورن)

"ليست السعادة هدفًا نسعى له بشكلٍ ظاهر، إنها زهرة نقطفها ونحن على طريق الواجب." (چون ستيوارت ميل)

تقدم لنا الميثولوچيا اليونانية نصًا يحمل حقيقة عميقة. إنه يروي قصة الملك ميداس من فريجية، الذي قدم خدمة عظيمة للآلهة. وكمكافأة له، طُلِب منه أن يتمنى أمنية. قال في نفسه إن الغِنى سيجعله سعيدًا. هكذا طلب أن يصير كل ما يلمسه ذهبًا. بالفعل يمسك فرع

شجرة ثم حجرًا فتتحول جميعها إلى ذهب. إذًا لقد صار غنيًا الآن! غير أن السعادة الظاهرة لا تخلو من انقلاب ضد ميداس. إن كل ما يلمسه سواء أكان كوبًا به ماء أو خبزًا، يتحول إلى ذهب؛ وما عاد قادرًا على الأكل أو الشرب. فيتحول حلمه إلى كارثة وخيبة أمل عميقة. ولولا تدخل ديونسيوس الذي وافق على التراجع عن وعده لميداس، لمات الأخير من الجوع. ثم يرسل ميداس للاستحمام في ماء نبع باكتول، الأمر الذي يحرره من ذلك الجحيم الذهبي.

"ليست السعادة حجر ألماس ضخمة، بل تشكيل من أحجار صغيرة مرصوصة بتناغم." (ألفونس كار)

"إن السعادة الوحيدة التي ننالها تأتي من السعادة التي نمنحها." (إدوار بايرون)

"مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرَ مِنَ الأَخْذِ." (أعمال الرسل ٢٠ : ٣٥)

السعادة اختيار حياة

السعادة (لغويًا تعني "الحظ الحسن" – وبكلمة "حظ" يُقصَد: ما يحدث من خير أو من شر) هي حالة دائمة من الامتلاء والرضا، حالة مبهجة ومتوازنة للنفس والجسد، يغيب عنها الألم والضغط والقلق والاضطراب.[٥]

يؤكد بوذا في تعاليمه بشدة على إشكالية السعادة مقابل الألم. من خلال التوسط يتم تعميق الحقائق الأولية النبيلة للألم وطرق تجنبه. إن الألم ويل ينبغي تجنبه بأي ثمن. بالنسبة له لا يمكن أن يصير الإنسان

[٥] ويكيبيديا، السعادة، يوليو ٢٠١٨.

سعيدًا حقًا إلا في الحياة الأخروية، خارجًا عن المصادفات البشرية والتناسخ. ظاهريًا، يبدو بوذا محقًا. فعندما نتألم في الجسد بشكل مادي أو عاطفي يصير من الصعب أن نكون سعداء. إن الألم يغلف أرواحنا بالضباب ويشل حواسنا. فيستحيل الإمساك بلحظات البهجة والسعادة. إذًا، كيف يمكننا أن نفهم أن أكبر دليل على الحب مبني على بذل الحياة؟

"ليس الحب مكافأة، بل نتيجة. والألم ليس عقابًا، بل عاقبة."
(روبرت إنجرسول)

تصنف أمثولة الصرصار والنملة (١٦٦٨) لجون لا فونتين، الفرق بين موقفين وتصرفين: فالصرصار ظل يغني طوال الصيف، في حين ظلت النملة تعمل بلا هوادة. عندما صار الطعام شحيرًا، يطلب الصرصار من النملة أن تساعده، فترفض النملة وتلومه على تصرفه قصير النظر. في النهاية، أي منهما كان الأكثر سعادة؟

ليست تصرفاتنا دائمًا منطقية. إنها تختلف من شخص لآخر. ونفس الأمر ينطبق على ميلنا للاستمتاع وعلى الرضا بما نملكه وبما نحياه. من المهم جدًا إذًا أن يجد كل منا طريقه، الذي يلائمه أكثر. وبشكلٍ ما، فمن المبهج أكثر أن نعرف أننا لسنا جميعًا متشابهين. إن غِنى عالمنا يكمن ببساطة في اختلافنا!

مبكرًا جدًا، كانت لديَّ رغبة في الاستقلال وفي فهم معنى ما للسعادة. لقد حكى لي أبواي هذه القصة الطريفة عندما كنت في الثانية أو الثالثة من عمري. لقد اختفيتُ تمامًا بلا أثر. شعر أهلي بالقلق جراء غيابي وأخطروا الجيران. راح الحي كله يبحث عني بلا جدوى. بعد نحو ساعة، مرَّت خلالها الدقائق كساعات، عدتُ إلى البيت ساحبًا

خلفي كلبي الصغير الخشبي ذو العجلات. لقد كنت راضيًا جدًا عن نفسي وعن شجاعتي في مواجهة الحياة...

إن لكلٍ منا مقاييسه عن اللذة، كما أننا نبني كل منا على حدة استراتيجية السعادة الخاصة به. غير أن أمرًا واحدًا مؤكدًا وهو أن السعادة تعتمد أقل ما تعتمد على الظروف الخارجية، بل تعتمد علينا نحن واستعدادنا للاستمتاع. من المؤكد أنه توجد ظروف من اختيارنا ومن قراراتنا الحياتية ومن قدرتنا على القيام بعد كل فشل. بالنسبة لي، فإن أحد أفضل الطرق لأن أكون سعيدًا، هي قبولي ألا أكون مسيطرًا على كل شيء: في الحقيقة، بترك زمام الأمور، وقبول حقيقة هشاشتي وضعفي (دون أن أغفل نقاط قوتي أيضًا) أصير أكثر انفتاحًا على الحياة وعلى الآخرين؛ عندها أكون نفسي. عندها أقبل الاختلافات ولا أصير أنا نفسي المقياس الذي أقيس عليه الآخرين. بتجنب فخ المقارنة، أتجنب فخاخ الغيرة والحسد والغرور والتحقير والسخرية.

ليست اللذة هي السعادة، وليست السعادة تراكمًا للذات. إن اللذة قصيرة العمر، في حين أن السعادة تدوم. لكن ما يميزها هي إفرازات النواقل العصبية التي تُفرَز في أمخاخنا: إن اللذة تفرز الدوبامين، في حين تفرز السعادة السيراتونين. إن الدوبامين يدفع للإدمان، في حين أن السيراتونين مضاد للضغط النفسي.[٦]

مصدر اللذة هو إشباع مباشر لحاجة أو شهوة. إنها تدوم قليلاً ومن الممكن أن يعقبها نوع من الإدمان، خاصةً إذا كان مصدره تصرفًا متكررًا أو مادة ما. أما السعادة كما يصفها المزمور الأول، فلها ترتيب آخر مختلف تمامًا. إنه يعتمد على تجذر مثل الشجرة وجذورها. إنه

[٦] من الموقع: www.florenceservanschreiber.com.

يعتمد على العلاقات المستدامة التي لا يمكن لأحد أن يمحوها. إن مَن يجتاز في ماراثون، يتدرب بانتظام. إنه يقبل التضحيات والألم الحاضر. إنه يكافح حتى لا يهجر سعيه. لكن عندما يصل إلى الهدف المنشود، حين يصل إلى القمة، حتى ولو بتضحية ضخمة، فإنه يحيا لحظات السعادة الشديدة.

"لسنا نجد السعادة، بل نصنعها. إنها لا تعتمد على ما ينقصنا، بل على طريقة استخدامنا لما بين أيدينا." (أرنود ديچاردان)

هكذا، وبحسب الكتاب، فإن السعادة مصدرها اختيار حياتي. في مواجهة موقف ما، يرى البعض نصف الكوب الممتلئ والبعض الآخر النصف الفارغ. يرتبك البعض أمام موقف أو حدث غير متوقع، في حين يقول البعض الآخر أن هذه فرصة يجب اغتنامها. لننظر إلى اليهود الذين بعدما تاهوا في البرية، وقد أصبحوا على وشك دخول أرض الموعد؛ فهناك منهم مَن يتجمد خوفًا من العماليق الذي يتعين عليهم محاربتهم، في حين يرى البعض الآخر منهم الفواكه والخضروات التي تنتظرهم على الجانب الآخر من نهر الأردن. المسألة هي كيفية النظر للأمور. هكذا كان الأمر بالنسبة لي. كان من الممكن ألا أعود أقف على قدمي أبدًا بعدما تركتني زوجتي. لقد اعتقدت أن حياتي ستنهار. لقد عشت لحظات من الوحدة العميقة، ومن الحرمان والإحساس بالهجر والتخلي. لم يبدأ الأمر في التحسن ولم أستعِد زمام حياتي، إلا بعدما سلَّمت للرب أحزاني وقبولي للأمر الواقع. عدتُ أتطلع من جديد للمستقبل، بدلاً من النظر للخلف والأسى على ما فقدته.

"أن تكون لدينا شجاعة تغيير ما يمكن تغييره، والقبول الرصين لما لا يمكن تغييره، وامتلاك القدرة على التمييز بين الاثنين." (رينهولد نيبور)

"النجاح، هو المضي من فشل إلى فشل دون فقدان حماستنا."
(تشرشل)

"السعادة، هي الاستمرار في الرغبة فيما نملك."
(القديس أغسطينوس)

إن الحياة هي مجموعة من الاختيارات اليومية. إن رفض اتخاذ موقف حاسم يقود في النهاية إلى الأمور المحتومة وإلى حصاد حالة من الشك. لقد لاحظت وأدركت أن المواقف المعلقة كانت تشغلني على نحوٍ خاص. إن كل ملف مفتوح على مكتبي هو مصدر ضغط وقلق بالنسبة لي. لكن ما إن أقرر ما سأفعله حياله، حتى يتوقف عن السيطرة على كياني. إن بعض الاختيارات مميزة وتوجه حياتنا. قد نجد أنفسنا راغبين في تأجيل دفع ما علينا. ينطبق الأمر ذاته على اختيارنا للعمل والسكن ولشريك الحياة وأشياء أخرى. إن الحياة تمضي بمرور الأيام دون إمكانية لإعادتها للخلف. حين نجد أنفسنا في مفرق الطرق، يكون الاختيار الوحيد هو الاستفادة من الخبرات السابقة وأن نحدد اختيارنا بناءً على ما سبق من اختيارات فاشلة في الماضي. بهذا المعنى، فإن هذه الآية من سفر التثنية كانت عونًا كبيرًا لي.

"انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُ الْيَوْمَ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ. أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ." (تثنية ٣٠: ١٥، ١٩)

سعادة نحياها

أحد أكثر الكُتَّاب الذين جذبوني خلال الأعوام الماضية هو عالِم النفس المجري ميهالي تشزنميهالي. هاجرَ إلى الولايات المتحدة وعاش

بها. أحد نقاط قوته يتعلق بإشكالية السعادة. حصل في عام ٢٠٠٠ على جائزة "مفكرة العام"، وكتبه تُختطَف في العالم كله. صدر كتابه *"الحياة، سيكولوچية السعادة"* الصادر سنة ١٩٩٩، وهو يلقي الضوء على أمور حيوية. هذه بعض مقتطفات الكتاب:

السعادة ليست شيئًا يحدث فجأة؛ هي ليست نتاج صدفة؛ وهي لا تعتمد على الظروف الخارجية، بل على كيفية تفسيرها. إن السعادة حالة ينبغي الإعداد لها، ورعايتها وحمايتها من كل واحد. إن مَن يتعلمون أن يسيطروا على خبراتهم الداخلية يصيرون قادرين على تحديد نوعية حياتهم والاقتراب إلى أقرب ما يكون مما ندعوه أن نكون سعداء. (ص ٢٢)

على عكس ما يظن أغلب الناس، فإن أفضل لحظات الحياة لا تأتي ونحن مرتاحين. بل عندما تكون النفس والجسد مجهدين إلى أقصى درجة في جهد إرادي بهدف تحقيق شيء صعب وهام. (ص ٢٤)

عندما نحاول أن نصل إلى السعادة بأنفسنا، بدون معونة الإيمان أو عقيدةٍ ما، فإننا نسعى لزيادة اللذة التي كيفتنا بها الثقافة: مثل الغِنى أو السلطة أو الجنس، إذْ تصبح جميعها أهدافًا نسعى إليها. غير أن جودة الحياة لا يمكن أن تتحسن بهذا الشكل؛ إن السبيل الوحيد لقهر الحواجز التي تفصلنا عن السعادة هو أن نستمد بشكل دائم الرضا والانبهار من خلال ما نقوم به من أعمال. (ص ٣٢)

إن الشخص الذي يختار مشروعًا صعبًا بمقدارٍ كافٍ، يستغرقه ويستهلك طاقته من أجل تحقيقه، سيجد أعماله ومشاعره تتناغم ومناحي الحياة تنصهر معًا. بهذا الشكل يكون لنشاطه في الحاضر معنى كما في الماضي والمستقبل. (ص ٢٩٣)

من خلال التجريب على مستوى عالٍ، يقدم لنا ميهالي تشزنميهالي معلومات قيّمة عن الموضوع الذي نحن بصدده. إن هذه المعلومات تؤيد ما أشار به الأولون في الكتب المقدسة. فحين يقارن المزمور الأول الإنسان السعيد بشجرة تمتد جذورها نحو تيار الماء وبسبب هذا المصدر الخارجي ينجح في كل ما يعمله، فإن علم النفس الحديث لا يقول إلا ما يؤيد ذلك. إن السعادة تنساب من اختيارات حياتية، ونجاحات الأنظمة الخاصة والاحترافية تجد أصلها في الحياة المتزنة.

إن ما يختلف هنا مع علم النفس، هو الإيمان. لا شك لدى صاحب المزامير في أن أصل السعادة هو الله، الله فقط. بالنسبة له، فإن ليس المجرم فقط هو الخارج عن القانون، بل كل مَن يرفض أن يخضع لوصاياه وسلطانه. لا يستطيع الإنسان أن ينطلق نحو المستقبل أو يكون سعيدًا إلا إذا قبِلَ وخضع لسلطان الله وإرادته الإلهية من خلال التأمل في ناموس الله.

إن باحثنا يعترف بأن الإيمان هو مُحفِّز ومُسرِّع للسعادة. بالفعل في خلق مشروع حياتي ما، فإن الإيمان يغني الإنسان عن الحاجة لتذوق لذة مباشرة. إن الإنسان مستعد لقبول الفشل والآلام بشرط أن تكون لهذه دورًا تربويًا تضمَّن تكوين شخصية أفضل. ففي الموت عن ذواتنا يولد إنسان جديد.

"اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ." (يوحنا ١٢: ٢٤)

الحياة في الحرية

كما سبق ورأينا، فإن الشخص الأكثر سعادة ليس مَن يبحث عن اللذة الزائلة. فكثيرًا ما نظن أن حريتنا هي أن نحصل على حالة من الرضا

عن النفس مباشرةً. لكن الأمر ليس كذلك. فالبعض يظن أن الحصول على أحدث الأجهزة والملابس على أحدث موضة أو متابعة مشاهدة حلقات تليفزيونية دون أن تفوته حلقة واحدة، أي تحقيق كل رغباته، من علامات الحرية والسعادة.

في الحقيقة، فإن هذه المسرات عابرة كلها، وتغذي فقط المزيد من الرغبات. إنها تجعل الإنسان معتمدًا عليها مدمنًا لها وتفصل الإنسان عن الواقع وعن الآخرين.

على العكس من ذلك، فإن اتّباع القواعد واحترام القانون، تمثل لنا قيودًا ذات وزن. إن المراهق أو الطفل الكامن فينا يتمرد على قواعد أهله الحقيقيين أو المُتخيَّلين. فقط عندما نصل إلى سن البلوغ نبدأ نشكر أهلنا على حمايتهم لنا من فخاخ مجتمعية معينة أو من أنواع من الإدمان الشديدة المنتشرة.

لقد أثبتت الأبحاث أن الأشخاص الذين يأكلون بلا قيود يعيشون أقل ممَن تعلموا أن يأكلوا فقط ما هو ضروري محافظين على قدرٍ من الجوع. إن للصوم مزاياه الحقيقية. الفراغ لا يحقق السعادة. إن الناس الأكثر رضا هم مَن تعلموا أن يتجاوزوا حدودهم الجسدية والنفسية بشكل مستمر عبر جهد كبير وقدر من المجازفة.

هكذا، فإن الحرية الحقيقية ليست في السهولة، بل هي تلك التي تدعونا بشكل مستمر لاتخاذ خطوات في الاتجاه الصحيح.

"المشي، هو وضع قدم أمام الأخرى؛ هو أن نظل دائمًا في وضع عدم اتزان. اليوم الذي تتوقف فيه عن النمو، تبدأ في التراجع."
(مؤلف مجهول)

ينطبق الأمر ذاته على وصايا العهد القديم العشر.[٧] إن الانطباع الأولي عند قراءتها هو المنع: لا تفعل... فضَّل كالڤن[٨]، المصلح السويسري الكبير، أن يضع في المقدمة، ليس الجانب السلبي من الوصايا، بل التشجيع على تحويل التقييد إلى حماسة لفعل الخير. بنظرة فاحصة، فإن النص الكتابي نفسه يقترح مدخلاً كثيرًا ما يفوتنا.

"أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ." (تثنية ٥: ٦)

"وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لأَجْلِ ذلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ." (تثنية ٥: ١٥)

إن إدراكنا للحرية الممنوحة لنا من الله، وحده الذي يفتح لنا القدرة على فهم الوصايا العشر، وليس العكس. بفضل عبور البحر الأحمر، استطاع الشعب أن يحيا في أمان وحرية ليعبد الله. من المؤكد أن لا أحد فوق التجربة. من الممكن جدًا، حتى بعدما ذُقنا طعم الحرية، أن نسقط في شهوات الماضي ونسعى نحو اللذات الزائلة. فبعد أن نال الشعب المَن كبركة إلهية، أبغضوه وباتوا يحلمون بطعام مصر، متناسين تمامًا المذلة التي عاشوا فيها هناك. ما هي الحرية الحقيقية إذًا، أهي في اللذات العابرة، أم في الرضا الدائم؟

"وَدَعَا بَيْتُ إِسْرَائِيلَ اسْمَهُ «مَنًّا». وَهُوَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ، أَبْيَضُ، وَطَعْمُهُ كَرِقَاق بِعَسَل." (خروج ١٦: ٣١)

---

[٧] خروج ٢٠؛ تثنية ٥.

[٨] چون كالڤن، أسس الحياة المسيحية، ١٥٣٦.

"وَلكِنْ إِنْ قَالَ الْعَبْدُ: أُحِبُّ سَيِّدِي وَامْرَأَتِي وَأَوْلاَدِي، لاَ أَخْرُجُ حُرًّا." (خروج ٢١: ٥)

"وَالَّتِي عَمِلَهَا بِدَاثَانَ وَأَبِيرَامَ ابْنَيْ أَلِيآبَ ابْنِ رَأُوبَيْنَ اللَّذَيْنِ فَتَحَتِ الأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمَا مَعَ بُيُوتِهِمَا وَخِيَامِهِمَا وَكُلِّ الْمَوْجُودَاتِ التَّابِعَةِ لَهُمَا فِي وَسْطِ كُلِّ إِسْرَائِيلَ." (تثنية ١١: ٦)

هكذا، يصير من اليسير أن ننسى وعود الله لحياتنا ونرتد إلى الأمور العابرة، لكن المرغوبة بشدة! وهل لم يعِدهم الله بأرض تفيض لبنًا وعسلاً ***(لاويين ٢٠: ٢٤)***؟ فكيف يمكن لرجال الله بعدما مارسوا خدمة قوية، أن تهزمهم رغبات الجسد (السلطة والمال والجنس) حتى يكادوا يفقدوا كل شيء، حتى أنفسهم؟

"لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ آتٍ بِكَ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ. أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ، وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي الْبِقَاعِ وَالْجِبَالِ." (تثنية ٨: ٧)

إنني أحب الطريقة التي أعاد بها أرنست لانج صياغة الوصايا العشر في كتيبه المعنون *"١٠ x حرية"* [٩]:

١. من غير المجدي أن تخاف! أنا الرب القدير، أريد مساعدتك.
٢. من غير المجدي أن تترك نفسك تحت تأثير الانطباعات! أنا الرب القدير أريد أن أعلمك.
٣. من غير المجدي أن تحاول مساعدة نفسك في العمل! أنا الرب القدير، أنا صديقك.
٤. من غير المجدي أن تقتل نفسك في العمل! أنا الرب القدير أريد أن أكون رئيسك وقائدك.

[٩] ١٠x حرية، المطبوعات الكتابية الجامعية، ١٩٧٨.

٥. من غير المجدي أن تحيا في التمرد الدائم! أنا الرب القدير أريد أن أكون أبوك السماوي.
٦. من غير المجدي أن ترى الآخرين كمنافسين! أنا الرب القدير أريد أن أحميك.
٧. من غير المجدي أن تريد أن "تحيا حياتك"! أنا الرب القدير أريد أن أكون مصدر سعادتك.
٨. من غير المجدي أن تسعى للغِنى بشكل غير أمين! أنا الرب القدير أعلم حاجتك.
٩. من غير المجدي أن تلوي عنق الحقيقة! أنا الرب القدير عندي ثقة بك.
١٠. من غير المجدي أن تحسد وتشتهي ما لغيرك! أنا الرب القدير أعطيك الأشياء الضرورية.

قصة التماسيح

لله خططًا عظيمة لحياتنا. إنه يود أن يوسع آفاقنا ويجعلنا ننمو داخليًا. كثيرًا ما ظننت أنه ينبغي أن أعمل أشياء لله حتى أرضية. غير أني أدركت من خلال التجارب التي مررت بها والصحراء التي تعيَّن عليَّ عبورها، أن ما يهم الله ليس ما أفعله، بقدر نوعية علاقتي به، وكذلك نموي الشخصي.

عندما أرغب في جعل الأحداث تسرع، فإنني أوقَف وأفشل. لكن عندما يفتح الله نفسه الطريق، يستقر السلام في قلبي وتختفي المعوقات. حتى الأخطار تلاشى كأن يدًا خفية قد أزالتها وأبعدتها.

يحدث أن يفتح الله أبوابًا غير مسبوقة، ونتردد نحن في عبور عقباتها. لقد دُعيت لإحياء مؤتمرًا للرعاة في جنوب مصر. نشأت

الفكرة من خلال حوار حول الشبكات الاجتماعية، مع صديق مصري. شاركته ببساطة عما وضعه الله في قلبي. في النهاية كان هذا الحدث سبب بركة عظيمة للحضور ولي. فرغم المشاكل اللغوية (تكلمي بالإنجليزية ومن ثَمَّ ترجمتها من خلال مترجم إلى العربية)، فقد كان حضور الله واضحًا. لقد أرسل الله بروحه مسحة شفاء وتشجيع. كان الحشد كله يبكي والله يلمس القلوب.

إن هذا اللقاء هو الدافع لهذا الكتاب، أُعلِنت لي بدايات أفكاره منذ نحو عشر سنوات مضت. لكن قبل أن أبدأ في تلك المغامرة، وخوفًا من ألا أكون على قدر التحديات، وفي مواجهة المجهول الذي كان ينتظرني في مصر، خشيت أن أقوم بتلك الخطوة. أخيرًا، بعد ساعة واحدة من شرائي تذكرة الطيران، أرسل لي صديق آخر رسالة تحتوي على قصة التماسيح. فأدركت أن ما هذا إلا تأكيد إلهي. في الحقيقة، أحيانًا ما نخشى نحن الدخول في ما هو مُقدَّر لنا.

كان لرجل غني ابنة جميلة جدًا يريد أن يزوجها. من أجل ذلك، وراغبًا في إيجاد أفضل زوج لها، أقام مسابقة: سيفوز بها ليس الأفضل عائليًا، بل الأكثر جرأة وشجاعة.

وعدَ من يفوز في المسابقة يد ابنته، ومبلغًا كبيرًا من المال. كانت المسابقة هي: يفوز مَن يعبر أولاً سباحة حمام سباحة كبيرًا. في يوم المسابقة، احتشد عدد كبير من المتسابقين على خط البداية، الذين وجدوا التحدي سهلاً يسيرًا وفي متناول أيديهم.

لكن قبل لحظات من بدء المسابقة، ألقت طائرات الهيلوكوبتر سلسلة من التماسيح في حمام السباحة. تغير الجو العام كليةً وخاف أشجع المتسابقين. متسابق واحد فقط قفز إلى الماء وعبرَ حمام

السباحة بكل قوة. عند وصوله إلى الجانب الآخر من الحمام، خرج بكل سرعة، وأُعلِن فائزًا بالمسابقة. مدَّ الأب يده وقد تعجب من أدائه، وهنَّأه وهو يسأله عن كيفية اجتيازه هذا الاختبار. أجاب وهو لا زال مرتعدًا يحاول أن يتمالك نفسه: "هل يمكنك أن تدلني على الشخص الذي دفعني إلى الماء؟".

مغزى القصة، هو أننا كثيرًا ما نجد تماسيح على طريقنا، تعطلنا وتجعل أي نمو مستحيلاً. غير أن هذه التماسيح ما هي إلا حيوانات مُتخيَّلة تمنعنا من دخول الأرض التي وعد الله أن يعطيها لنا. إنها تشل أرواحنا وتثير الريبة في نفوسنا.

بنفس المنطق هناك الكثير من الجبال في حياتنا نظنها غير قابلة للعبور والتسلق. يمنعنا حجمها المخيف من رؤية ما خلفها. غير أن البدء في اجتيازها يجعلنا نرى كيف أن هذه الجبال جميلة وأقل ارتفاعًا مما تخيلنا. إنها ليست أكثر من خطوة نحو مغامرة أخرى واعدة. كثيرًا ما اختبرت شخصيًا أن الخطوة الأكثر صعوبة هي الخطوة الأولى. وما أن نقبل أن ننطلق في طريقنا، حتى يصبح كل ما علينا أن نفعله هو أن نسير واضعين قدمًا أمام الأخرى، بصبرٍ وأناة. كلما ثابرنا، كلما اقتربت القمة أكثر، إن ذلك لا يحدث بغير جهد، غير أنه كثيرًا ما يحدث أسرع مما تخيَّلنا ودون أن نحس أنه قد حدث فعلاً.

الجزء الثاني: الشجرة

"فَمِنْ شَجَرَةِ التِّينِ تَعَلَّمُوا الْمَثَلَ: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقَهَا، تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّيْفَ قَرِيبٌ." (متى ٢٤: ٣٢)

حتى الآن، فقد ركزنا اهتمامنا بالشجرة للإنسان السعيد، بحسب وصف المزمور الأول. كما درسنا طبيعة النجاح والسعادة والتحديات المتعلقة بحياتنا. غير أن الشجرة في الكتاب المقدس تعني أكثر من ذلك. إنها تمثل صورة قوية جدًا كثيرًا ما ألهمت الشعراء والأنبياء وحتى يسوع نفسه. إننا نجد ذلك في صفات شجرة التين أو الأرز أو الكرمة. إن المسيح نفسه يستخدمها كمرجع ومرشد رمزي للزمن.

بحسب النصوص، نجد صفات مختلفة لها بإشارات خاصة. يُشار إلى شكلها وحجمها ووظيفتها الاجتماعية، ولكن أيضًا إلى صفاتها سواء المرئية أو غير المرئية. هناك الجذور والعصارة والأغصان وكذلك الأوراق والثمار.

إن الشجرة هي كيان كامل يثير التأمل. تُخاطِبنا من أجل استقرارها وثباتها. إنها تمثل الإنسان السعيد الذي يعرف أن يستفيد من المكان الذي وُضع فيه. سواء أزُرع في أرض غنية حرة أو على أرض منبسطة جافة، أو في غابة كثيفة أو حتى في الصخور، سواء زُرع في مكان هادئ أو في موضع معرض للرياح والعواصف، فإنه يقاوم الظروف المحيطة به ويمد جذوره.

إنها بذاتها، مثَل ورمز حي للإنسان الباحث عن المعنى. إنها تردنا إلى ذواتنا وإلى حاجتنا الشخصية للاستقرار والثبات. إن قبولنا لأنفسنا هو ضمان لحياة ثرية ومباركة. إن القرب من الماء وآشعة الشمس أمران أساسيان للنبات لأجل أن يزدهر ولأجل نوعية الثمار التي يثمر

بها. إن حجم الشجرة وتقليمها من الأشياء التي تجعل الشجرة أقوى وتدفع إلى نموها أكثر فأكثر. هكذا الحال مع الإنسان الذي جذوره في الله والذي يقبل أن يشكله خالقه. دعونا في هذا الفصل نكتشف أوجهًا كثيرة لهذا المعنى الغني.

الشجرة والحكمة

تنسب الأمثال الكتابية للحكمة العديد من المزايا الروحية غير المادية. إن مصدرها هو الله وفي الوقت نفسه تجسيد لشخصه. إن رمزيتها تغطي كذلك شكلاً من الحضور المسياني.

عندما يربط يوحنا بين المسيح والكلمة الذي كان من البدء ***(يوحنا ١: ١-٣)***، فإنه يرتكز ويعتمد على نفس رمزية الحكمة الموجودة[١٠] في كتاب الأمثال ***(أمثال ٨: ٢٣-٣٦)***.

في النص التالي، فإن الحكمة هي هوية ثمينة على نحوٍ خاص. إنها أصل السعادة. أما خصوصيتها فهي أنها لا توجد في الكتب. إنها عطية إلهية يعطيها لمَن يثبتوا فيه.

"طُوبَى لِلإِنْسَانِ الَّذِي يَجِدُ الْحِكْمَةَ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي يَنَالُ الْفَهْمَ، لأَنَّ تِجَارَتَهَا خَيْرٌ مِنْ تِجَارَةِ الْفِضَّةِ، وَرِبْحَهَا خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ. هِيَ أَثْمَنُ مِنَ اللآلِئِ، وَكُلُّ جَوَاهِرِكَ لاَ تُسَاوِيهَا. فِي يَمِينِهَا طُولُ أَيَّامٍ، وَفِي يَسَارِهَا الْغِنَى وَالْمَجْدُ. طُرُقُهَا طُرُقُ نِعَمٍ، وَكُلُّ مَسَالِكِهَا سَلاَمٌ. هِيَ شَجَرَةُ حَيَاةٍ لِمُمْسِكِيهَا، وَالْمُتَمَسِّكُ بِهَا مَغْبُوطٌ. الرَّبُّ بِالْحِكْمَةِ أَسَّسَ الأَرْضَ. أَثْبَتَ السَّمَاوَاتِ بِالْفَهْمِ." (أمثال ٣: ١٣-١٩)

[١٠] انظر أيضًا عبرانيين ١: ١-٣.

إن الحكمة والذكاء، هنا أيضًا، هما مرادفان للحياة الممتلئة والمعطاءة، وهذا أصل السعادة. إن الحكمة هي مضاد للقيم المادية الفانية مثل الغنى والمال، والذهب أو المجوهرات. بالإضافة إلى أن الحكمة هي مُعِين لا ينضب، بل يهب الحياة، إنها على نحوٍ ما يمكن مقارنتها بشجرة الحياة في جنة عدن والتي أُقصِي عنها الناس بعد السقوط. بفضلها يُمنَحون دخولاً إلى الملء الموهوب من الله ويعودون يتذوقون طعم الأبدية.

شجرة الحياة وشجرة المعرفة

تلعب شجرة الحياة دورًا أساسيًا في النصوص الكتابية. إنها حاضرة في بداية سفر التكوين حتى نهاية سفر الرؤيا. كما يُشار إليها في العديد من أجزاء سفر الأمثال. إنها مغروسة في جنة عدن ***(تكوين ٢)***، وتسترد مكانها المحوري بين ذراعي نهر أورشليم الجديدة ***(رؤيا ٢٢)***.

إن الأصحاح الثاني للتكوين يصرّ على البيئة التي أسَّسها الله ليضع الإنسان فيها. إنه يخلق له جنة، حتى يشعر الإنسان فيها بالراحة والرخاء. كل شيء بها جميل ومبهج. كما يتلقى الناس أمرًا بزراعة الجنة والحفاظ عليها. ما عدا ذلك، يمكنه أن يتمتع ويستفيد من الحياة ومن علاقته المباشرة مع أبيه السماوي.

ثم مرة أخرى، يخلق الله المرأة ليجنب الإنسان من أن يعاني الوحدة. إنها تصبح مُعِينة له ونظيرته. بفضلها يطور الإنسان اللغة والاتصال، ويصبح قادرًا على استيلاد الحياة. إن كان معنى اسم آدم هو أديم الأرض وترابها، المأخوذ من التراب، فإن اسم حواء يعني الحياة أو التي تعطي الحياة. هكذا يفكر الله في كل شيء: يفكر في خير الإنسان ماديًا وروحيًا، من خلال الجنة، ولكن كذلك من خلال السعادة

الجسدية، التي تؤمنها رسالة ودورًا اجتماعيًا. إن الزوجيْن يعيشان بسعادة في جنة عدن.

إن الأشجار على نحوٍ خاص متنوعة ووافرة. لا شيء ينقص. إن الجنة تمثل الخير والكرم الإلهي. في البداية لا يميز القارئ سبب وجود شجرة الحياة لأنها غارقة وسط باقي الأشجار جميعًا. ولا تظهر ضحية دورها المحوري إلا بعد سقوط الرجل والمرأة. عندها تظهر هذه الشجرة كأساس الخلود. بالفعل وبحسب نصوص سفر التكوين، فكلما ابتعد الإنسان عن جنة عدن وعن الله، كلما قصرت سني حياته. في أورشليم الجديدة فقط، في نهاية سفر الرؤيا، يعود الإنسان يجد الحياة الأبدية مرة أخرى وشجرة الحياة المرتبطة بها.

هناك شجرة أخرى تتقاسم المكان المركزي في الجنة. إنها شجرة معرفة الخير والشر. إن مجرد وجودها يثير الفضول. لأنه سيلعب دورًا فائقًا في بقية النص، لكن لا نسمع عنها بعد ذلك في الكتاب المقدس.

للنظرة الأولى، فإن هذه الشجرة تلعب دورًا أساسيًا كدور شجرة الحياة. في الحقيقة، كيف يمكن تقدير السعادة إذا كان نقيضها غير موجود؟ كيف يمكن التأكد من كرم الله إن كان كرمه بلا حدود؟ إنه فقط من خلال العذاب يظهر معنى السعادة، ومن خلال الألم ندرك معنى الهناء والراحة.

"وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ

الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». ***" (تكوين ٢ : ٧-٩؛ ١٦-١٧)***

إن هذا النص يبين لنا مدى كرم الله. لكن مثل طفل يركز على ما هو ممنوع عليه من أهله بدلاً من الاستمتاع بوفرة الخيرات المتاحة له، فإن المرء ليتوقف كثيرًا أمام المنع الإلهي. مثلما لا يدرك الطفل معنى ما يمنعه الأهل عنه، هكذا الإنسان المخلوق لا يدرك خطة الله ويحاول أن يجرب ويمتحن الحدود غير المسموح له بتجاوزها.

تصبح شجرة المعرفة مكان التجربة، تجربة الثقة أو عدم الثقة من المخلوق في الخالق. هل تراه سيقنع بضخامة الخيرات المتاحة له للتمتع بها من خلال كلمة الله له، أم سيستسلم للشك والتجربة؛ إن التجربة تجرفه. لطالما تأكدنا أن الكثير من الأشياء بعينها مضرة بصحتنا النفسية والجسدية، ومع ذلك تبقى فينا رغبة تجربتها لنُكوّن بذلك خبرتنا الخاصة.

إن حية سفر التكوين هي خير تصوير لذلك. إنها تركز اهتمام حواء على الممنوع لتجعلها تشك في الكرم الإلهي. فتبدأ حواء في اعتبار إيحاءات الحية وقد خلطت بين الشجرتيْن الأساسيتيْن. فشجرة الحياة التي في وسط الجنة هي التي ثمارها غير ممنوعة.

ثانيًا: فإن الحية تشكك في كلمة الله فيما يختص بالأخلاقيات. لكن حواء التي تجهل معنى الموت، لا تدرك تبعات الانسياق وراءها إلى ما هو ممنوع.

ثالثًا: تجعل الحية الله يبدو ككاذب أناني، يرغب في أن يترك الإنسان في الجهل والخضوع.

"وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». (تكوين ٣ : ١-٥)

كان الإنسان يعيش سعيدًا يستمتع بالحياة الأبدية في حضور خالقه. كان كل ما عليه فعله هو الاستمتاع من الطبيعة الوافرة ومن العِشرة والصلة الكاملة مع إلهه. لقد رأى الله أن معرفة الخير والشر لن تسعد خليقته.

في حضور الله، لا مكان للمرض أو الدينونة أو الموت. يؤكد سفر الرؤيا أن شجرة الحياة تولد عدم الموت من خلال ثمارها (غذائها) وأوراقها (للشفاء). من هنا فقد كان آدم وحواء نباتيين. كان الإنسان والحيوان يعيشا في سلام دون أن يتقاتلا فيما بينهما. لكن الشك الذي أدخلته الحية سيغير المشهد برمته.

إن اكتشاف معرفة الخير والشر، السعادة والألم، سيفتح العيون على حقائق جديدة لكنه سيزرع أيضًا الارتباك والفوضى. سيكتشف الإنسان عار أن يكون عاريًا ***(تكوين ٣ : ٧)***، الخوف ***(عدد ١٠)***، الكذب وإلقاء اللوم على الآخر ***(عدد ١٣)***، الألم الجسدي والخضوع ***(عدد ١٦)***، والعذاب البدني وعداوة عناصر الطبيعة له والموت ***(أعداد ١٧-١٩)***. إن ما يبدو مرغوبًا وذا ترتيب إلهي، يبدو في النهاية كأكبر خيبة أمل في التاريخ. إن هذه المعرفة القصوى لا تجلب سوى العذاب والاضطراب. ألم يكن الله بمنعه هذ المعرفة يعلم أن الإنسان سيكون أكثر سعادة بدونها؟

إن الطرد خارج جنة عدن سيحرم الإنسان من شجرة الحياة وسيخلق فجوة لا يمكن عبورها بين الإنسان وحضور الله. سيحتاج الإنسان إلى العمل الشاق من أجل البقاء، وسيتواجه في الصراعات والانقسام والحروب واختبار الموت البطيء أو المفاجئ. لا توجد وسيلة للعودة إلى شجرة الحياة إلا من خلال المصالحة التي قدمها المسيح، الذي رفع الدينونة أيضًا عن الإنسان.

"وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ. وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ." (رؤيا ٢٢: ١-٣)

في الحضور الإلهي، بحسب ما يصفه سفر الرؤيا، تجد البشرية الخلود والسعادة المطلقة. بما أن الألم غير موجود هناك، فلا حاجة لمعرفة الخير والشر. فكما أن الله هو النور، هكذا تختفي الظلال وظلمة الليل. إن الأمر كله يتعلق بالشفافية والثقة المطلقة.

لكن بين نص التكوين ونص الرؤيا، هناك اختلافات تستوجب ملاحظتها. أولاً: الله يرافقه الحَمَل، الذي يمثل المسيح. ثانيًا: في حين كان الله يسير في الجنة، نجده في نص الرؤيا جالسًا على العرش. ثالثًا: تحولت الجنة إلى مدينة.

هذه العناصر الثلاثة ذات معنى في التاريخ الإنساني، وكذلك في قصة الخلاص. فنحن لا نعود إلى نقطة البدء! لقد تضاعف الكائن البشري وتمدَّن وتحضَّر. لقد حلت المدن والحياة الحضرية مكان الجنة بحياتها الخالية من الهموم والحياة الزراعية. لقد تكوَّن المجتمع وصار

تراتبيًا. من ذلك الوقت أصبح الله يُمثَّل بملك جالسًا على عرشه بين رعاياه. أخيرًا، فإن الخلاص يأتي من خلال المسيح، الحَمَل، الذي يجلب للإنسان غفرانًا لخطاياه والقيامة من الأموات. في سفر الرؤيا يبدو الإيمان كمعركة يتعين الفوز بها.

"مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسَطِ فِرْدَوْسِ اللهِ." (رؤيا ٢ : ٧)

"مَنْ يَغْلِبُ فَذلِكَ سَيُلْبَسُ ثِيَابًا بِيضًا، وَلَنْ أَمْحُوَ اسْمَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ، وَسَأَعْتَرِفُ بِاسْمِهِ أَمَامَ أَبِي وَأَمَامَ مَلاَئِكَتِهِ." (رؤيا ٣ : ٥)

إن كان الخلاص الموصوف في الرؤيا مرتكزًا على الإيمان بالمسيح والثبات والمثابرة في التجربة، فلماذا تُقدَّم لنا الدينونة الإلهية على هيئة محكمة؟ كيف يكون هنالك تمييز بين سفر الحياة والكتب، أي السجلات المُدوَّن بها أعمال البشر؟ هل معنى ذلك أن أعمال المختارين لم تُسجَّل؟ بماذا يفيد التقدم لهذه الدينونة إن كان الأمر محسومًا مسبقًا؟

"وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ صِغَارًا وَكِبَارًا وَاقِفِينَ أَمَامَ اللهِ، وَانْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ، وَانْفَتَحَ سِفْرٌ آخَرُ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ، وَدِينَ الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ. وَسَلَّمَ الْبَحْرُ الأَمْوَاتَ الَّذِينَ فِيهِ، وَسَلَّمَ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ الأَمْوَاتَ الَّذِينَ فِيهِمَا. وَدِينُوا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِ. وَطُرِحَ الْمَوْتُ وَالْهَاوِيَةُ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ. هذَا هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي. وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ طُرِحَ فِي بُحَيْرَةِ النَّارِ." (رؤيا ٢٠ : ١٢-١٥)

في الحقيقة، فإن التمييز بين سفر الحياة والكتاب يأتي من سبق وجود (للشجرة) معرفة الخير والشر. كيف يمكننا بشكل واقعي أن نفرق بين الأعمال الرديئة والحسنة إن كانت معرفة الخير والشر غير موجودة؟

إن الإنسان وقد رغب في معرفة طبيعة الخير والشر يتم محاكمته بناءً على تلك المعرفة. في جنة عدن، لم يكن أحدًا مشغولاً بهذا التمييز. لقد كان هناك تناغمًا بين الخالق والمخلوق.

مع الانفصال الذي حدث بين الإنسان والله، المسمى أيضًا سقوطًا وخطية، فقد أصبحت الحياة البشرية تُقاس من خلال أعمالها. أصبحت الدينونة عنصرًا أساسيًا من الطبيعة البشرية الساقطة. هكذا، لم تعُد تصرفات الإنسان حسنة النية أو تلقائية، بل قد تلاها الشك والإدانة.

"لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا." (متى ٧: ١)

"لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ." (يوحنا ٣: ١٧)

هكذا، تستخدم الدينونة الإلهية أدوات الإنسان لتبرهن وتميز بين القذى والخشبة. لكن الأمر الأساسي هنا لا يكمن في التمييز بين الأخيار والأشرار، ولا في معنى العدل الإلهي، بما أن جميع المدانين لا يكون لهم ذات المصير. إن مفتاح الرسالة هو الإيمان بالمسيح، وهو البديل الوحيد الذي يقدم لنا الحياة الأبدية. أو كما قال الرسول بولس الجميع أخطأوا واستحقوا الموت.

"بِرُّ اللهِ بِالإِيمَانِ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى كُلِّ وَعَلَى كُلِّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ. لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ. إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ، مُتَبَرِّرِينَ مَجَّانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ." (رؤيا ٣: ٢٢-٢٤)

إن هذه النصوص تناديني وتتحدث إليَّ، لأنني أدرك أنني عندما أحيا في السيطرة العليا على حياتي، فإنني أحيا وفق شجرة الحياة، بل بحسب شجرة معرفة الخير والشر، التي يخلق اختيارها مقارنة الإنسان

نفسه بالآخرين، التنافس، الحسد، الشهوة، الغرور، والاستهزاء بالآخرين. هذه الشجرة تقودني إلى مقارنة نفسي بغيري حتى تزداد ثقتي بنفسي وحتى تقنعني بقيمتي الشخصية. عندها أقيس نفسي وأدين بدلاً من الحياة على أساس الخلاص المجاني، الذي فتح لي من جديد الطريق إلى شجرة الحياة، وبناءً عليه قبول الآخر، دون أحكام مسبقة.

إنني أرغب بشدة أن أحيا في جدة الحياة بشكل يومي، في الحرية غالية الثمن التي قدمها لنا المسيح، وليس حسب الحياة القديمة الموروثة من آبائي ***(١ بطرس ١: ١٨)***، أي أنني أرغب أن أعيش وفق شجرة الحياة وأن أظهر ثمار الروح القدس التي هي محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، وتعفف ***(غل ٥: ٢٢)***.

الأخلاق

"إن الهدف من كل الأفكار الأخلاقية هو معرفة الخير والشر، أما العمل الرئيسي للأخلاق المسيحية فهو محو هذه المعرفة." [١١]

(ديتريش بونهوفر)

إن ديتريش بونهوفر (١٩٠٦-١٩٤٥)، اللاهوتي الألماني في زمن الرايخ الثالث، والمعروف عنه ميله لكنيسة معترفة بالمقابلة مع تلك التي خضعت للتأثير الهتلري، وقد لاحظ بوضوح طبيعة المشكلة، كان يواجه بشكل شخصي مجيء القوانين المضادة للديموقراطية وتصاعد موجة معاداة السامية، واختار طريق المعارضة إلى حد المشاركة في محاولة ضد هتلر. لقد أراد بوضوح أن يثبت من خلال معارضته أن بعض الأفعال، رغم كونها رديئة في حد ذاتها، إلا أنها من الممكن أن

[١١] ديتريش بونهوفر (١٩٠٦-١٩٤٥)، الأخلاقيات، ١٩٦٩، ص١.

تكون جيدة وخلاصية. للأسف، بسبب فشل المحاولة، فقد تعيَّن عليه أن يموت من أجل الهدف الذي عاش من أجله.

بالنسبة لبونهوفر، فإن معرفة الخير والشر كانت معرفة خاطئة أو غير حقيقية. ومع ذلك، فإن الاختيارات الأخلاقية ترتكز على هذا التمييز بينهما. ما الذي يجب أن أفعله؟ هل من السِلم أن أفعل هذا أو ذاك؟ هل هذا الاختيار أفضل من ذاك؟ إنه يتعين علينا يوميًا أن نقوم باختيارات ربما يثبت أنها فكاهية. في الأغلب، نكون غير قادرين على إدراك تبعات أفعالنا. ربما بعد زمن نستطيع أن نرى ونحكم على جودة القرارات التي اتخذناها.

هناك قرارات تبدو نتائجها ثقيلة. فالاختيارات المهنية، العاطفية، والمتعلقة بالسكن من الممكن أن تكون صعبة. لذا من الأفضل أن نحسن الاختيار منذ البداية! وأخيرًا، فمن الأفضل أن نولد في أسرة طيبة ذات إمكانات مادية حسنة وأن نكون في صحة جيدة...

إن هذا المنطق يبلغ حدوده سريعًا ويستهزئ بالخطوات اللازمة للإنسان كي يتعلم ويتدرب. ألا يبدو الله نفسه كمُربٍ يسعى إلى نمونا وخيرنا؟ هكذا، فإن ما كان يبدو حسنًا بالأمس، هل من الوارد أن يثبت غدًا أنه ليس حسنًا إلى هذا الحد؟

"إدراكنا ان المشاكل التي تفرض علينا لم نخترها، يبني أرواحنا ويحرر طاقاتنا." [١٢]

كما رأينا، فإن الإنسان في الجنة لم يكن مدركًا للخير والشر. كان يعيش بانسجام مع بيئته ومع الله. إن الاختيارات تنبع من صفاء الذهن.

[١٢] فرانسوا كوريلسكي، الأخلاق، ١٩٦٩، ص ٢٣٣.

لكن كل ذلك يتغير عندما يدخل الشك والتجربة مُمثَّلة في حضور الحية.

يرى ديتريش بونهوفر أنه من المهم أن نخرج من هذا الصراع اليومي، مرتكزًا على مثال المسيح الذي رفض أن يترك نفسه حبيس تصورات الأفكار، فهو أمام المرأة التي أُمسِكت في ذات الفعل وعلى وشك أن تُرجَم *يقول: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!" (يوحنا ٨: ٧)*

هل كان يسوع ذكيًا بشكل خاص ليعرف كيف يرد دون أن يكون محل نقد؟ في حين أنه قد نشأ في مجتمع يتميز بالناموسية اليهودية، ما الذي يدفعه إلى الكلام والتصرف بشكل مختلف؟

يجيب بونهوفر أن يسوع كان على علاقة دائمة بأبيه السماوي، يستمد منها حكمته وقوته. إن اختياراته ليست ثمرة لمسألة الخير والشر، بل هي نتيجة موقف واضح ينبع من علاقته بأبيه وبحبه لله وللقريب.

"مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ. لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لأَنَّهُمْ لَكَ." (يوحنا ١٧ : ٩)

النهر

لا يمكننا الحديث عن الشجرة في الكتاب المقدس دون الحديث عن الماء. بالفعل فإن أحد أهم الخصائص التي تميز الشجرة في ***(مز ١)*** أو مثيلتها في ***(إرميا ١٧ : ٨)*** حقيقة قربها من نهر. منه تستمد الشجرة قوتها وحيويتها. ينطبق الأمر ذاته على شجرة الحياة الكائنة بين

نهرين. بدون القرب من الماء، تصبح الشجرة مجرد غصن في صحراء. إن ما يجعلها مفعمة بالحياة هو ذلك المصدر الذي يرويها كما يروي الحيوان والإنسان.

"وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ." (تكوين ٢: ١٠)

"ثُمَّ أَرْجَعَنِي إِلَى مَدْخَلِ الْبَيْتِ وَإِذَا بِمِيَاهٍ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ عَتَبَةِ الْبَيْتِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، لأَنَّ وَجْهَ الْبَيْتِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ. وَالْمِيَاهُ نَازِلَةٌ مِنْ تَحْتِ جَانِبِ الْبَيْتِ الأَيْمَنِ عَنْ جَنُوبِ الْمَذْبَحِ." (حزقيال ٤٧: ١)

"وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ." (رؤيا ٢٢: ١)

لكنها تستمد أصلها من الله. إنه المصدر الحقيقي المتفرد الذي تستفيد منه الأرض.

"أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعًا هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ، وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ فِضَّةٌ تَعَالَوْا اشْتَرُوا وَكُلُوا. هَلُمُّوا اشْتَرُوا بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ خَمْرًا وَلَبَنًا." (إشعياء ٥٥: ١)

"لأَنَّ شَعْبِي عَمِلَ شَرَّيْنِ: تَرَكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقُرُوا لأَنْفُسِهِمْ أَبْآرًا، أَبْآرًا مُشَقَّقَةً لاَ تَضْبُطُ مَاءً." (إرميا ٢: ١٣)

إن الماء السماوي مثله مثل المَن الذي لا ينبغي تخزينه، بل استهلاكه في اليوم نفسه. إنه ماء طازج متدفق. لا ينبغي أن نتركه يجف، وينبغي أن نظل متصلين بشكل لا ينقطع بالمصدر. إن الله في محبته، يعِد ألا يغلق هذا المصدر أبدًا. إن مَن يسعى لاحتكار هذا

العطاء الإلهي يكون محكومًا عليه بقلة الإيمان.

"إِنَّـهُ مِـنْ إِحْسَـانَاتِ الـرَّبِّ أَنَّنَـا لَـمْ نَفْـنَ، لأَنَّ مَرَاحِمَـهُ لاَ تَـزُولُ." (مراثي إرميا ٣: ٢٢)

إن مَن يظل متصلاً بهذا المصدر لا ينتعش ويغتني فقط هو، بل آخرين أيضًا معه، كما يذكّرنا يسوع نفسه بذلك.

"وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى قَائِلاً: إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ." (يوحنا ٧: ٣٧)

في حديثه مع السامرية، يستخدم المسيح صورة الماء للرد عليها. إنه كابن لله يحمل صفات وخصائص الله. فيما هو جالس على حافة البئر بينه وبين هذه المرأة المهمشة حوارًا حول موضوع الماء. هو عطشان للماء وهي عطشى للمعرفة. عندما يطلب منها أن تسقيه، ففي الحقيقة إن يسوع يعرض عليها رمزيًا ما سيغير حياتها إلى الأبد وسيغير علاقاتها مع قريتها.

"أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا." (يوحنا ٤: ١٣)

في كثير من النصوص يرمز الماء إلى روح الله. في العهد الجديد، فإن معمودية الماء، المُطهّرة ورمز الحياة الجديدة، لابد أن تُستكمَل بمعمودية الروح. لابد أن نولد من الماء والروح ***(يوحنا ٣: ٥)***، كما أن الأنبياء قد سبقوا وأسسوا لهذه العلاقة، بحسب تصوير إشعياء:

"لأَنِّي أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ، وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ. أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى نَسْلِكَ وَبَرَكَتِي عَلَى ذُرِّيَّتِكَ." (إشعياء ٤٤: ٣)

تتحدث النصوص الأصلية عن المياه الداخلية (المحيطات) والعليا (الأمطار). في البداية، كانت الأرض مغطاة تمامًا بالمياه، بما تحمله المياه من خصائص خطيرة ذات تهديد. ويقول نص الرؤيا بشكل محدد أن البحر يرد الأموات الذين ماتوا به ***(رؤيا ٢٠: ١٣)***. كان عبور البحر الأحمر والأردن على أرض جافة من خلال تدبير الله لطريق عبر البحر. ثم يتحول التهديد والخطر إلى عقاب من خلال الطوفان.

في مقابل ذلك، فإن الأمطار الآتية من السماء هي بركة ونجاة بما أنها تروي الأرض وتسمح لها أن تثمر محاصيلها. إنها عطية إلهية. يهدد إيليا النبي آخاب بأنه سيغلق الصنابير الإلهية إلى حد سينقص معه الغذاء. ولا تعود الأمطار إلا بعد إبادة أنبياء البعل.

"وَقَالَ إِيلِيَّا لأَخْآبَ: «اصْعَدْ كُلْ وَاشْرَبْ، لأَنَّهُ حِسُّ دَوِيِّ مَطَرٍ»." (١ ملوك ١٨: ٤١)

"وَلَمْ يَقُولُوا بِقُلُوبِهِمْ: لِنَخَفِ الرَّبَّ إِلهَنَا الَّذِي يُعْطِي الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ فِي وَقْتِهِ. يَحْفَظُ لَنَا أَسَابِيعَ الْحَصَادِ الْمَفْرُوضَةَ." (إرميا ٥: ٢٤)

دعونا عند نهاية هذا الجزء، نتذكر دعوة المسيح لبطرس للمشي على الماء. نرى في الأناجيل كيف ليسوع من قدرة على إخضاع العناصر والطبيعة. إنه يأتي للرسل ماشيًا على المياه. رمزيًا، فإنه يدوس على المياه ومعها الألم والموت. وطالما ثبَّت بطرس عينيْه على المسيح، تظل معه نفس قدرات المسيح: إنه يسير بثبات على المياه. لكن ما إن يشك وينظر للأسفل حتى يبدأ في الغرق. إن السبيل الوحيد للتغلب على العناصر هو أن ننظر بثبات إلى سوء العناصر والطبيعة.

عندما أوشكتُ على فقدان وظيفتي، حدث أن شككتُ أيضًا في إرادة الله لحياتي. كنت كمَن هو مأخوذ في عاصفة غير قادر على الرؤية.

حل الشك بقلبي بدلاً من صلاح الله. في تلك اللحظة كلمني الله من خلال هذا النص. أصبح الأمر يقينيًا: فطالما ركزت عيناك على الأمور الخارجية، فإنك تكون في ظلمة، فارفع عينيْك وانظر إلى يسوع ***(عبرانيين ١٢ : ٢)***. بفضله ستسير على المياه.

منذ ذلك الحين، قررت أن أنظر إلى الأحداث بطريقة مختلفة. أجبرت نفسي على النظر إلى الله والثقة فيه. مثل داود، تطورت صلاتي: فقد تحولت مخاوفي وقلقي عندما وضعتها بين يدي الله إلى كلمات تسبيح وحمد. رويدًا رويدًا تحولت شكوكي إلى إيمان وثقة. لم أندم قط على هذه الخطوة، لأنني حتى إن مررت بتجارب، فإنني أشعر أكثر من أي وقت مضى في حياتي أن الله ممسك بزمامها. إنه يغذيني ويرويني بروحه.

إن العمل الذي ينتظرنا يصبح لا شيء مقارنةً بالقوة التي تسكن فينا.

الجزء الثالث: الجذور

" هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: مَلْعُونٌ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَى الإِنْسَانِ، وَيَجْعَلُ الْبَشَرَ ذِرَاعَهُ، وَعَنِ الرَّبِّ يَحِيدُ قَلْبُهُ. وَيَكُونُ مِثْلَ الْعَرْعَرِ فِي الْبَادِيَةِ، وَلاَ يَرَى إِذَا جَاءَ الْخَيْرُ، بَلْ يَسْكُنُ الْحَرَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ، أَرْضًا سَبِخَةً وَغَيْرَ مَسْكُونَةٍ. مُبَارَكٌ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَى الرَّبِّ، وَكَانَ الرَّبُّ مُتَّكَلَهُ." (إرميا ١٧ : ٥-٧)

إن نص إرميا يشبه بقوة المزمور الأول. حيث نجد الشجرة المغروسة عند مجاري المياه مركز الإشارة إلى السعادة التي يمنحها القرب من الرب. هذه الشجرة تثمر وورقها كثير. في الحالتين، فإن الشجرة ترمز للسعادة والنضج الروحي.

لكن من خلال نظرة فاحصة، نستطيع أن نلمح معانٍ أخرى. إن كان المزمور الأول، في افتتاحية سفر المزامير، يقدم رسالة منهجية هي أقرب للحكمة الشعبية، فإن النبي إرميا يؤكد على ضرورة وحاجة الإنسان للرجوع إلى الله. إن أسلوبه أكثر حسمًا وصراحة. إنه يصرّ على التضاد بين كن ملعونًا / كن مباركًا، في حين لا يتكلم المزمور الأول إلا عن المستهزئين الأشرار.

في حين يتكلم المزمور عن الشجرة المطلوبة بالمقابلة مع القش الذي تذريه الريح فيتبعثر، يركز إرميا على الاختلافات بين الناس. فالبعض يثمر بفضل علاقته مع الله، والبعض الآخر بسبب نقص الماء لا يستطيعون أن يزدهروا ويحيون حياة جافة.

بالنسبة لإرميا، فإن نوعي الشجرتيْن يشيران إلى صنفيْن من البشر. يعتمد النوع الأول على الأمور الفانية، في حين يعتمد الثاني على الله. ما يميزهما عن بعضهما البعض هي التربة والثمار التي يثمرونها.

يعجز النوع الأول عن بلوغ السعادة، سواء بسبب معاناته من الظروف السيئة التي تحيط به في بيئته من حرارة شديدة وجفاف وعدائية، وسواء لعجزه من استقبال السعادة. أما النوع الثاني، فلا تؤثر فيه الظروف البيئية إلا بشكل محدود، بسبب اتصاله بمصادر غنية وغير محدودة.

سواء بالنسبة لإرميا أو صاحب المزامير، فإن القرب من المياه الجارية هو الأمر الذي يعِد بالحياة والسعادة. يشير المزمور الأول إلى أصل النجاح البشري، في حين يُذكّرنا إرميا بأنه يجب أن تكون علاقتنا بالله يومية: فذلك يضمن أن تظل الأوراق خضراء، وأنه لا يهم كثيرًا الحرارة وأشعة الشمس الحارقة، فليس للشجرة أن تخشى سنوات الجفاف. إنها تزدهر. إن طزاجة أوراقها تضمن تمثيلاً ضوئيًا في حده الأقصى، بدون أن تتأثر بشدة البيئة المحيطة بها.

يصرّ إرميا على أن العين لا تبصر: جذور الشجرة. فإن كانت لا تخشى الجفاف، فذلك بسبب مصدر مياهها الجوفي، فالمياه تمتص العناصر المغذية وتنقلها إلى الجذور. في الحقيقة، فإن الجذع والأغصان والأوراق ما هي إلا جزءًا من حقيقة مخفية. لو كانت الجذور مريضة، فإن الظروف الخارجية من طقس وغيره تصبح غير مهمة، لأن صحة الشجرة ستكون سيئة على أية حال. والعكس صحيح، فلو ساءت الظروف المادية، وكانت الجذور حسنة الحال ولها مصادر حيوية كافية، فليس للشجرة ما تخشاه.

إن الجذور كأجزاء غير ظاهرة للعين كثيرًا ما تبدو أقل أهمية من تلك الظاهرة. إن ما يبدو للعين المجردة قد يكون خادعًا، ولا ينبغي أن نعطيه أكثر من قيمته الحقيقية. عندما نتواجه مع مشكلةٍ ما، يكون هناك خطر أن ننساق للأعراض بدلاً من أصل الشر الذي تحمله. إننا ننسى

أن الجزء المغمور من جبل الثلج أهم كثيرًا من الجزء الظاهر فوق سطح الماء. ينطبق الأمر ذاته على الشجرة، فإن حجم جذورها يفوق حجم أغصانها.

زهرة عباد الشمس

عندما كنت مراهقًا كنت أحب نبات الصبار. أهدوني واحدة ثم أخرى، وكنت أعتني بها وأسقيها وأضعها قرب النافذة ليكون لديها ما تحتاجه من النور، فكانت تنمو جيدًا وتزهر أزهارها. تدريجيًا ازدادت مجموعتي من الصبارات لأنها كانت تسعدني. كنت أراقب ظهور أزهارها على نحوٍ خاص.

يومًا ما، زرعت بذرة عباد الشمس في إناء صغير قُطره لا يزيد عن خمسة سنتيمترات. لسعادتي، بدأت البذرة في الإنبات والنمو. وتكوَّن لها عود وزهرة. لكن في حين يبلغ ارتفاع زهرة الصبار في الحقل أربعة أمتار، فإنها في حجرتي لم يزد ارتفاعها عن ٥٠ سنتيمترًا. كنت راضيًا تمام الرضا عن زهرتي، إذ لم يكن لديَّ بأي شكل مكانًا آخر لتصير فيه زهرة عباد شمس حقيقية.

عندما أتأمل ذلك الوقت من حياتي، أشعر بأنني قد قمت بإنجاز كبير بإنمائي زهرة عباد شمس في حجرتي. غير أني كنت أقول أنها لا تُقارَن بعباد الشمس الأصلي ذاك الذي نجده في الحقول. إنني اليوم أنظر لتلك القصة كرمز وأمثولة لما يحدث في حياتنا. ما الأسباب التي أدت إلى بقاء زهرتي قزمة؟ ما هي نتائج أن نضع حدودًا لنمو نبات ما؟ لقد كانت بذرة زهرتي كالتي تُزرَع في الحقول. لكن ما صنع الفرق هو الإناء الذي وضعتها فيه. لقد عجزَت الجذور عن النمو بشكل طبيعي، فاتخذت شكل إنائي وحددت حجم الزهرة. عندما عجزَت

الزهور عن النمو، عجزَت الزهرة عن النمو كذلك. كان السبب الوحيد لصغر حجم زهرتي هو حجم الإناء الموضوعة فيه. لقد قمت بنفس التجربة مع شجرة موز. لقد صنعَت أوراقًا جميلة، لكن لم يتسنَّ لي قط أن أذوق ثمارها.

تعلمتُ منذ ذلك الحين أن حجم الأغصان يتناسب مع حجم وامتداد الجذور. فكلما كانت الشجرة ضخمة ومهوبة، كانت جذورها أكثر امتدادًا. وفي الحقيقة، حين لا يكون للشجرة ما يكفي من الجذور، فإنها تصبح مهددة بالجفاف والزوال.

هكذا حياتنا أيضًا، فإننا نقيد طاقاتنا ونُحجِّم طموحاتنا. إننا نحلم، لكننا نشك في إمكانية تحقيق تلك الأحلام. كأننا سيارة "بورش"، لكن محركها بقوة حصانيْن فقط! لقد خلقنا الله أذكياء، وأعطانا إمكانات غير عادية، لكن بسبب انعدام ثقتنا في أنفسنا وخشيتنا مما سيقوله الناس عنا، فإننا نحدّ نمونا ويتكون لدينا إحساس بالتواضع الكاذب. إن حجم إنائنا هو الصغير في الحقيقة. فلا عجب في حالةٍ كهذه إن أصبحنا غيورين ومُحبَطين، ودائمي النظر إلى الآخرين لنقارنهم بأنفسنا.

"إنك لا ترى العالم كما هو، بل تبعًا لما أنت عليه!" (التلمود)

كطفلٍ، كنت غيورًا غضوبًا. كان خجلي يمنعني من التعبير عن شخصيتي بشكلٍ كامل. كنت أكبت طاقتي ومشاعري. مما كان يظهر بشكل فوضوي وعنيف من خلال لغتي ومزاجي. في حين كان مَن هم أكثر جرأة مني، يخاطرون ويمارسون رياضاتهم المفضلة ويحيون سني مراهقتهم دون قيود، أما أنا فكنت أقنع بالبقاء على الشاطئ أتأمل ما يحدث من بعيد. كنت في مأمن، لكن فاتني الكثير مما كان ينبغي أن أحياه.

بعد دعوة الله في سن الحادية عشرة، بدأت حياتي تنمو وتثري. فقد بدأتُ أتخذ بعض المسئوليات في مجموعاتٍ ما، كما نمَّيتُ مواهبي الموسيقية إلى حد تأليف الأغنيات وتقديمها بشكل عام للجمهور. كلما ازدادت ثقتي بنفسي، كان إنائي يكبر وجذوري تمتد. لكنني احتجت لسنينٍ ولعمل الروح فيَّ حتى أصل على ملئي.

إن العوائق التي كثيرًا ما نصطدم بها هي غالبًا نتاج بنياننا الذهني. يدَّعي الكثيرون أن الآخرين يضغطون عليهم، ويرغبون في تغييرهم، غير مدركين أن نظرتهم هُم للآخر ولطبيعة علاقاتهم معهم هي التي يمكنهم تغييرها وليس شيء آخر: هكذا يحدُّون من أنفسهم حين يحدُّون الآخرين أيضًا دون أن يدركوا ذلك. إن تلك العوائق كثيرًا ما تحدث بسبب ثقتنا فيما نفترضه عن الآخرين وتفسيراتنا الممدودة للمواقف. هكذا نحدّ من قدراتنا على التصرف بشكلٍ آخر.[١٣]

دينونة الملك

إن نص الشجرة المزدهرة في المزمور الأول هو رسالة قوية مشجعة للمضي في الطريق المستقيم، أي البقاء على عهدنا مع الخالق. لكن ماذا عن الأشخاص الذين ينجحون في الحياة دون أن تكون لهم علاقة مع الله؟ إننا نعرف قطعًا أشخاص لا يؤمنون بالله وينكرون وجوده ويزدرون به، ومع ذلك فإنهم في نجاح ورخاء ربما أكثر مما لدى المؤمنين.

من خلال قراءاتي في الكتاب المقدس اكتشفت أن هذه المشكلة قد شغلت بال أجدادنا. لقد حاول الناس منذ آلاف السنين أن يفهموا سر

[١٣] كوريلسكي، من الرغبة إلى السعادة في التغيير، ص٦٠.

النجاح وأن يصلوا إلى آلية عمل العدل الإلهي. أحب هنا أن أورد نصين عن أشجار متطوعة قد جذباني على نحوٍ خاص. إن الأمر يتعلق بموقفيْن لمَلِكيْن سيتم إنهاء حُكمهما بشكل عنيف مفاجئ.

الأول مذكور في سفر حزقيال ويتعلق بملك مصر. مُمثَّلاً رمزيًا بأرز لبنان، فإنه عظيم وذو نفع لكل الأحياء الذين حوله. إن شجرة الأرز في الحقيقة لها أفرع ممتدة متعددة الطبقات. إنها تعطي الحماية والأمان. في حماية ظلالها يحلو الجلوس وبناء الأعشاش. إن شجرة الأرز تزدهر بفضل المياه النازلة من السماء والنابعة من الأرض. إن كل ظروفها مواتية، لكن الله يطلب منها بعد ذلك حسابًا. إنها رمز لفرعون الرجل القوي والمشهور في العالم كله والذي امتلأ رأسه غرورًا.

"وَكَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي عَشَرَ، فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ، أَنَّ كَلاَمَ الرَّبِّ صَارَ إِلَيَّ قَائِلاً: «يَا ابْنَ آدَمَ، ارْفَعْ مَرْثَاةً عَلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ وَقُلْ لَهُ: أَشْبَهْتَ شِبْلَ الأُمَمِ وَأَنْتَ نَظِيرُ تِمْسَاحٍ فِي الْبِحَارِ. انْدَفَقْتَ بِأَنْهَارِكَ، وَكَدَّرْتَ الْمَاءَ بِرِجْلَيْكَ، وَعَكَّرْتَ أَنْهَارَهُمْ. هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: إِنِّي أَبْسُطُ عَلَيْكَ شَبَكَتِي مَعَ جَمَاعَةِ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ، وَهُمْ يُصْعِدُونَكَ فِي مِجْزَفَتِي. وَأَتْرُكُكَ عَلَى الأَرْضِ، وَأَطْرَحُكَ عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ، وَأُقِرُّ عَلَيْكَ كُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، وَأُشْبِعُ مِنْكَ وُحُوشَ الأَرْضِ كُلَّهَا. وَأُلْقِي لَحْمَكَ عَلَى الْجِبَالِ، وَأَمْلأُ الأَوْدِيَةَ مِنْ جِيَفِكَ. وَأُسْقِي أَرْضَ فَيَضَانِكَ مِنْ دَمِكَ إِلَى الْجِبَالِ، وَتَمْتَلِئُ مِنْكَ الآفَاقُ. وَعِنْدَ إِطْفَائِي إِيَّاكَ أُحْجُبُ السَّمَاوَاتِ، وَأُظْلِمُ نُجُومَهَا، وَأُغْشِي الشَّمْسَ بِسَحَابٍ، وَالْقَمَرُ لاَ يُضِيءُ ضَوْءَهُ. وَأُظْلِمُ فَوْقَكَ كُلَّ أَنْوَارِ السَّمَاءِ الْمُنِيرَةِ، وَأَجْعَلُ الظُّلْمَةَ عَلَى أَرْضِكَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأَغُمُّ قُلُوبَ شُعُوبٍ كَثِيرِينَ عِنْدَ إِتْيَانِي بِكَسْرِكَ بَيْنَ الأُمَمِ فِي أَرَاضٍ لَمْ تَعْرِفْهَا. وَأُحَيِّرُ مِنْكَ شُعُوبًا كَثِيرِينَ، مُلُوكُهُمْ يَقْشَعِرُّونَ عَلَيْكَ اقْشِعْرَارًا عِنْدَمَا أَخْطِرُ بِسَيْفِي قُدَّامَ وُجُوهِهِمْ، فَيَرْجِفُونَ كُلَّ لَحْظَةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى نَفْسِهِ فِي يَوْمِ سُقُوطِكَ.» لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: سَيْفُ مَلِكِ بَابِلَ يَأْتِي عَلَيْكَ. بِسُيُوفِ الْجَبَابِرَةِ

أُسْقِطُ جُمْهُورَكَ. كُلُّهُمْ عُتَاةُ الأُمَمِ، فَيَسْلُبُونَ كِبْرِيَاءَ مِصْرَ، وَيَهْلِكُ كُلُّ جُمْهُورِهَا. وَأُبِيدُ جَمِيعَ بَهَائِمِهَا عَنِ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ، فَلاَ تُكَدِّرُهَا مِنْ بَعْدُ رِجْلُ إِنْسَانٍ، وَلاَ تُعَكِّرُهَا أَظْلاَفُ بَهِيمَةٍ. حِينَئِذٍ أُنْضِبُ مِيَاهَهُمْ وَأُجْرِي أَنْهَارَهُمْ كَالزَّيْتِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. حِينَ أَجْعَلُ أَرْضَ مِصْرَ خَرَابًا، وَتَخْلُو الأَرْضُ مِنْ مِلْئِهَا. عِنْدَ ضَرْبِي جَمِيعَ سُكَّانِهَا يَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ. هذِهِ مَرْثَاةٌ يَرْثُونَ بِهَا. بَنَاتُ الأُمَمِ تَرْثُو بِهَا. عَلَى مِصْرَ وَعَلَى كُلِّ جُمْهُورِهَا تَرْثُو بِهَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَكَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، فِي الْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، أَنَّ كَلاَمَ الرَّبِّ كَانَ إِلَيَّ قَائِلاً: «يَا ابْنَ آدَمَ، وَلْوِلْ عَلَى جُمْهُورِ مِصْرَ، وَأَحْدِرْهُ هُوَ وَبَنَاتِ الأُمَمِ الْعَظِيمَةِ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى مَعَ الْهَابِطِينَ فِي الْجُبِّ.»" (حزقيال ٣١: ١-١٨)

الشجرة الثانية هي نبوخذ نصَّر، ملك بابل، الذي يرى حلمًا يؤرقه ويبحث عمَّن يفسره له. مثله مثل فرعون، فإن الشجرة تكبر أكثر من كل الأشجار وتسبب له الراحة. لكن الأمور يومًا ما تتغير. لقد أُدينت الشجرة وقُطِعت. يفهم الملك أن الأمر يتعلق به، دون أن يقدر مع ذلك على تفسير الحلم. فيبحث عن المعونة بين وزرائه، بلا طائل. لكن دانيال اليهودي وحده قد استطاع تفسير الحلم بفضل إيمانه وقدراته النبوية.

"مِنْ نَبُوخَذْ نَصَّرَ الْمَلِكِ إِلَى كُلِّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ السَّاكِنِينَ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا: لِيَكْثُرْ سَلاَمُكُمْ. الآيَاتُ وَالْعَجَائِبُ الَّتِي صَنَعَهَا مَعِي اللهُ الْعَلِيُّ، حَسُنَ عِنْدِي أَنْ أُخْبِرَ بِهَا. آيَاتُهُ مَا أَعْظَمَهَا، وَعَجَائِبُهُ مَا أَقْوَاهَا! مَلَكُوتُهُ مَلَكُوتٌ أَبَدِيٌّ وَسُلْطَانُهُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ. أَنَا نَبُوخَذْ نَصَّرُ قَدْ كُنْتُ مُطْمَئِنًّا فِي بَيْتِي وَنَاضِرًا فِي قَصْرِي. رَأَيْتُ حُلْمًا فَرَوَّعَنِي، وَالأَفْكَارُ عَلَى فِرَاشِي وَرُؤَى رَأْسِي أَفْزَعَتْنِي. فَصَدَرَ مِنِّي أَمْرٌ بِإِحْضَارِ جَمِيعِ حُكَمَاءِ بَابِلَ قُدَّامِي لِيُعَرِّفُونِي بِتَعْبِيرِ الْحُلْمِ. حِينَئِذٍ حَضَرَ الْمَجُوسُ وَالسَّحَرَةُ وَالْكَلْدَانِيُّونَ وَالْمُنَجِّمُونَ، وَقَصَصْتُ الْحُلْمَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُعَرِّفُونِي بِتَعْبِيرِهِ. أَخِيرًا دَخَلَ قُدَّامِي دَانِيآلُ الَّذِي اسْمُهُ بَلْطَشَاصَّرُ كَاسْمِ إِلهِي، وَالَّذِي فِيهِ رُوحُ الآلِهَةِ

الْقُدُّوسِينَ، فَقَصَصْتُ الْحُلْمَ قُدَّامَهُ: «يَا بَلْطَشَاصَّرُ، كَبِيرُ الْمَجُوسِ، مِنْ حَيْثُ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ فِيكَ رُوحَ الآلِهَةِ الْقُدُّوسِينَ، وَلاَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ سِرٌّ، فَأَخْبِرْنِي بِرُؤَى حُلْمِي الَّذِي رَأَيْتُهُ وَبِتَعْبِيرِهِ. فَرُؤَى رَأْسِي عَلَى فِرَاشِي هِيَ: أَنِّي كُنْتُ أَرَى فَإِذَا بِشَجَرَةٍ فِي وَسَطِ الأَرْضِ وَطُولُهَا عَظِيمٌ. فَكَبُرَتِ الشَّجَرَةُ وَقَوِيَتْ، فَبَلَغَ عُلُوُّهَا إِلَى السَّمَاءِ وَمَنْظَرُهَا إِلَى أَقْصَى كُلِّ الأَرْضِ. أَوْرَاقُهَا جَمِيلَةٌ وَثَمَرُهَا كَثِيرٌ وَفِيهَا طَعَامٌ لِلْجَمِيعِ، وَتَحْتَهَا اسْتَظَلَّ حَيَوَانُ الْبَرِّ، وَفِي أَغْصَانِهَا سَكَنَتْ طُيُورُ السَّمَاءِ، وَطَعِمَ مِنْهَا كُلُّ الْبَشَرِ.

كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى رَأْسِي عَلَى فِرَاشِي وَإِذَا بِسَاهِرٍ وَقُدُّوسٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَصَرَخَ بِشِدَّةٍ وَقَالَ هكَذَا: اقْطَعُوا الشَّجَرَةَ، وَاقْضِبُوا أَغْصَانَهَا، وَانْثُرُوا أَوْرَاقَهَا، وَابْثُرُوا ثَمَرَهَا، لِيَهْرُبَ الْحَيَوَانُ مِنْ تَحْتِهَا وَالطُّيُورُ مِنْ أَغْصَانِهَا. وَلكِنِ اتْرُكُوا سَاقَ أَصْلِهَا فِي الأَرْضِ، وَبِقَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ وَنُحَاسٍ فِي عُشْبِ الْحَقْلِ، وَلْيَبْتَلَّ بِنَدَى السَّمَاءِ، وَلْيَكُنْ نَصِيبُهُ مَعَ الْحَيَوَانِ فِي عُشْبِ الْحَقْلِ. لِيَتَغَيَّرْ قَلْبُهُ عَنِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَلْيُعْطَ قَلْبَ حَيَوَانٍ، وَلْتَمْضِ عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَزْمِنَةٍ. هذَا الأَمْرُ بِقَضَاءِ السَّاهِرِينَ، وَالْحُكْمُ بِكَلِمَةِ الْقُدُّوسِينَ، لِكَيْ تَعْلَمَ الأَحْيَاءُ أَنَّ الْعَلِيَّ مُتَسَلِّطٌ فِي مَمْلَكَةِ النَّاسِ، فَيُعْطِيهَا مَنْ يَشَاءُ، وَيُنَصِّبُ عَلَيْهَا أَدْنَى النَّاسِ. هذَا الْحُلْمُ رَأَيْتُهُ أَنَا نَبُوخَذْ نَصَّرَ الْمَلِكَ. أَمَّا أَنْتَ يَا بَلْطَشَاصَّرُ فَبَيِّنْ تَعْبِيرَهُ، لأَنَّ كُلَّ حُكَمَاءِ مَمْلَكَتِي لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُعَرِّفُونِي بِالتَّعْبِيرِ. أَمَّا أَنْتَ فَتَسْتَطِيعُ، لأَنَّ فِيكَ رُوحَ الآلِهَةِ الْقُدُّوسِينَ.»

حِينَئِذٍ تَحَيَّرَ دَانِيآلُ الَّذِي اسْمُهُ بَلْطَشَاصَّرُ سَاعَةً وَاحِدَةً وَأَفْزَعَتْهُ أَفْكَارُهُ. أَجَابَ الْمَلِكُ وَقَالَ: «يَا بَلْطَشَاصَّرُ، لاَ يُفْزِعْكَ الْحُلْمُ وَلاَ تَعْبِيرُهُ.» فَأَجَابَ بَلْطَشَاصَّرُ وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي، الْحُلْمُ لِمُبْغِضِيكَ وَتَعْبِيرُهُ لأَعَادِيكَ. اَلشَّجَرَةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا، الَّتِي كَبُرَتْ وَقَوِيَتْ وَبَلَغَ عُلُوُّهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَمَنْظَرُهَا إِلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَأَوْرَاقُهَا جَمِيلَةٌ وَثَمَرُهَا كَثِيرٌ وَفِيهَا طَعَامٌ لِلْجَمِيعِ، وَتَحْتَهَا سَكَنَ حَيَوَانُ الْبَرِّ، وَفِي أَغْصَانِهَا سَكَنَتْ طُيُورُ السَّمَاءِ، إِنَّمَا هِيَ أَنْتَ يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ، الَّذِي كَبُرْتَ وَتَقَوَّيْتَ، وَعَظَمَتُكَ قَدْ زَادَتْ وَبَلَغَتْ إِلَى السَّمَاءِ، وَسُلْطَانُكَ إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ. وَحَيْثُ رَأَى الْمَلِكُ سَاهِرًا وَقُدُّوسًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: اقْطَعُوا الشَّجَرَةَ وَأَهْلِكُوهَا، وَلكِنِ اتْرُكُوا سَاقَ أَصْلِهَا فِي

الأَرْضِ، وَبِقَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ وَنُحَاسٍ فِي عُشْبِ الْحَقْلِ، وَلْيَبْتَلَّ بِنَدَى السَّمَاءِ، وَلْيَكُنْ نَصِيبُهُ مَعَ حَيَوَانِ الْبَرِّ، حَتَّى تَمْضِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَزْمِنَةٍ. فَهذَا هُوَ التَّعْبِيرُ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَهذَا هُوَ قَضَاءُ الْعَلِيِّ الَّذِي يَأْتِي عَلَى سَيِّدِي الْمَلِكِ." (دانيال ٤: ١-٢٤)

في الحالتيْن يتعلق الأمر بتحذير إلهي لأشخاص ذوي سلطان مملوئين بذواتهم. كلاهما يُمثَّل بشجرةٍ هائلة كبرت إلى حد نوال إعجاب الجميع. لقد استفادا من الظروف الحسنة المواتية التي مكَّنتهم من النمو والغِنى. يبدو وكأن الله منحهما كل ما كانا يصبوان إليه، أي السعادة.

إن حجم كلاهما سيكون سبب انحسارهما ودينونتهما. لقد حاولا مثلما حدث في قصة برج بابل ***(تكوين ١١: ١-٩)*** أن يصلا إلى السماء برغبتهما في أن يكونا مشهودين من جميع الناس وأن يطبقا عدالتهما الخاصة. كأنهما أرادا أن يتنافسا مع الله نفسه وأن يحلا محله. لكن غرورهما وعجرفتهما ستكون سبب هلاكهما وهلاك مَن يدورون في فَلكهما. في حزقيال تقوم الأمم الغريبة بهذه المهمة العادلة، لكن في حالة دانيال يتدخل ملاك الرب كحطَّاب.

النتيجة النهائية هي نفسها في الحالتيْن: الخراب. لا يتبقى من الشجرتيْن سوى جذع وأغصان مبعثرة. أما البشر والحيوانات التي كانت تفيد من ظلالها وثمارها فتذهب إلى أماكن أخرى. لقد انتهى كرم الله الذي جعل هاتيْن الشجرتيْن أن تشربا من مصادره وتغتنيا إلى حد جعل باقي أشجار جنة عدن تغار منها. لا يتبقى منها إلا بقايا البشر المائتين.

"لِكَيْلاَ تَرْتَفِعَ شَجَرَةٌ مَّا وَهِيَ عَلَى الْمِيَاهِ لِقَامَتِهَا، وَلاَ تَجْعَلُ فَرْعَهَا بَيْنَ الْغُيُومِ، وَلاَ تَقُومُ بَلُوطَاتُهَا فِي ارْتِفَاعِهَا كُلُّ شَارِبَةِ مَاءٍ، لأَنَّهَا قَدْ

أُسْلِمَتْ جَمِيعًا إِلَى الْمَوْتِ، إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى، فِي وَسْطِ بَنِي آدَمَ مَعَ الْهَابِطِينَ فِي الْجُبِّ" (حزقيال ٣١: ١٤)

إن هذه التعبيرات المجازية تستخدم الدور الاجتماعي للشجرة. بالفعل، فإن الأشجار الضخمة تخلق حولها عالمًا كاملاً من الحياة. إن وجودها وحجمها الضخم يوفران الأمان والظل والرطوبة، وهي أمور حيوية للحياة في المناطق المدارية. يجد الحيوان فيها ملجأ، ويجلس البشر تحت ظلالها يتناقشون، وتنفتح تحت أغصانها البراعم الجديدة دون أن تخشى الجفاف. لكن إن قُطِعت شجرة ما، فما الذي يتبقى؟ لا شيء سوى الحزن والخراب. على الأقل ربما يتم الاستفادة بأخشابها لصناعة مقاعد أو بيوت أو أدوات موسيقية، كما كان يشدو إيف ديتاي قائلاً: "كل واحد فينا ما هو إلا قطعة صغيرة من شجرة السنديان العملاقة، وليست حياتي إلا نقطة تائهة في الأفق. لكن لكي تصبح شجرة في طريقها للموت أغنية، يلزمها حب الوجود كله."

هذان النصان عن الدينونة، يُذكّراننا بأن الله هو الذي يعطي ويأخذ. إنه الخالق السيد الملك، واهب الحياة، لكنه هو أيضًا مَن يسمح بانتهائها. إننا لسنا ندرك دومًا الأمور التي تحدث لنا، وإن كان الله هو مَن ورائها، غير أن عدالته ستحيط بها جميعًا، يومًا ما. إن الجذور تجلب الحياة للشجرة، لكن ما إن تُقطَع الشجرة، لا تعود للجذور فائدة. فمن جهة، تجف الشجرة المقطوعة، وتضمر الجذور لعدم وجود عمل لها تؤديه، ثم تموت في النهاية موتًا بطيئًا.

حبة الحنطة

على عكس هذا الشخصان البارزان بين البشر، فقد اختار يسوع أن يقدم لنا ملكوت الله بطريقة مختلفة تمامًا: ذلك من خلال حبة حنطة. إن

التضاد بينهما لافت للنظر. إن النبات الذي ينمو لا يعتمد على شكل أو حجم الحبة المنزرعة، بل بشكل متفرد على المعلومات المكتوبة على چيناتها. يكفي أن تجد حبة حنطة صغيرة جدًا المكان الملائم لكي تنمو وتنشر طاقتها، وحتى تفاجئنا بالنتائج وتتجاوز كل التوقعات.

قال يسوع: "فَقَالَ: «مَاذَا يُشْبِهُ مَلَكُوتُ اللهِ؟ وَبِمَاذَا أُشَبِّهُهُ؟ يُشْبِهُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَأَلْقَاهَا فِي بُسْتَانِهِ، فَنَمَتْ وَصَارَتْ شَجَرَةً كَبِيرَةً، وَتَآوَتْ طُيُورُ السَّمَاءِ فِي أَغْصَانِهَا.» وَقَالَ أَيْضًا: «بِمَاذَا أُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللهِ؟ يُشْبِهُ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلاَثَةِ أَكْيَالِ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ.»" (لوقا ١٣: ١٨-٢١)

ليس من الضروري أن نرضي الآخرين أو أن نكون في مكانة عالية حتى ننال رضا الله لكي نكون سعداء. يكفي أن نكون كما نحن، بالشكل الذي صنعنا الله عليه. إن ملكوت الله يُظهر نفسه من خلال الأشياء الصغيرة. إنه يبدأ ينبت في قلوبنا. إن الإيمان والسعادة لا يُفرَضان بالقوة، عكس ما هو شائع في الفلسفة المنتشرة في التيارات اليمينية واليسارية الثورية. إن الإيمان والسعادة يولدان بشكل سري من خلال الشركة ونمو مبني على الإعلان. كما يقول بولس: اختار الله الضعف ليواجه به العالم.

"بَلِ اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ، لِكَيْ لاَ يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ." (١ كورنثوس ١: ٢٧-٢٩)

إن الكتاب المقدس حافل بالأمثلة التي نرى الله من خلالها يستخدم أشخاصًا غير متوقعين ليحقق خططه. إنه لا يختار في المقام الأول

الذين يبدو أنهم مُقدَّر أن تكون لهم أدوارًا عظيمة. لننظر إلى يوسف، على سبيل المثال، بين آخرين كثيرين، مثل داود، موسى، إرميا، مريم، بولس، وتيموثاوس. فالبعض منهم خجول وجبان، والبعض الآخر حديث السن وغير ذي خبرة؛ وغيرهم كانوا أبعد ما يكونون عن الإيمان في لحظة دعوتهم. إن اختيارات الله تظل لغزًا كاملاً. كيف يحدث أنه على مثال شاول الذي أصبح بولس، يهبط الإعلان الإلهي على بعض الناس بحيث لا يُترَك لهم قط حرية الاختيار، في حين أن آخرين يظلون تائهين في بحثهم لسنواتٍ قبل أن يلمسهم روح الله؟

إن شهادتي الشخصية تؤيد ذلك. ألم أسمع بوضوح صوت الله يدعوني، رغم خجلي وها مشيتي، في سن الحادية عشرة؟ لكن على غير ما كنت أعتقد، فإن العمل الذي أعددت نفسي لأجله، لم يتبلور بالشكل الذي كنت أتوقعه. لقد احتجت لسنواتٍ من الإعداد ومن العمل على نفسي وعلى خبرة عملية في العالم، قبل أن أرى أخيرًا تحقيق الوعود التي وُعِدتُ بها قبل ذلك بسنواتٍ كثيرة.

لقد أنضج الله كياني وعمل في قلبي، وقد أجازني في تجارب كثيرة قبل أن يدعني أرى الخدمة المحددة التي أرادها لي. لقد استنتجت أن جذوري لم تكن عميقة ولا قوية بما يكفي، وكذلك إن شخصيتي كانت تقف حائلاً أمام عمل الله وأنه كان يتعين عليَّ أن أمرّ بمعاملات متنوعة. لقد ترك لي الله الوقت لأنمو وأنضج، حتى أقدر على تحمل وزن الأوراق والثمار.

سحابة من الشهود

لننظر الآن إلى عدة نماذج بين سحابة الشهود المحيطة بنا ***(عبرانيين ١٢: ١)***، والتي يفيض بها الكتاب المقدس والتي تشهد عن الطريقة السرية التي يعمل بها الله في عالمنا.

- **يوسف**

وجد نفسه بسبب حسد اخوته له، مُهمَّشًا ثم مُباعًا كعبد في مصر. لكنه بسبب أمانته واستقامته يفرض الاحترام على الآخرين، لكنه يثير اهتمام امرأة سيدة في الوقت ذاته. اتُّهِمَ ظلمًا بأنه قد تحرش بها وسُجِن لسنواتٍ قبل أن ينال صفاته الإنسانية والروحية. ثم دُعِي لتفسير حلم فرعون، فيجد نفسه صاعدًا إلى أعلى الوظائف كالرجل الثاني في المملكة ووزيرًا للاقتصاد. ثم بفضل هذه المسئولية، قد استطاع أن يساهم في إنقاذ العديد من الأرواح، بمَن فيهم اخوته.

"فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ." (تكوين ٤٥: ٨)

- **موسى**

أُنقِذ من المياه بشكلٍ معجزي، وحُفِظت حياته بفضل يقظة ابنة فرعون، وتربى في القصر. عندما يكتشف أصوله ويلاحظ الظروف التي يحيا فيها اخوته بالدم، فإنه يقتل المصري ويهرب لحياته. في مكان صحراوي وبعيدًا عن عائلته، يجد لنفسه وظيفة راعٍ. ثم يتزوج ويعيش لعقود حياة هادئة على هامش الحضارة. حين يظن أنه بعيد المنال، فإن الله يعلن له عن نفسه هناك في الصحراء، دون مقدمات. لكن كل ما فيه يعارض هذه الدعوة غير المتوقعة.

"فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، لَسْتُ أَنَا صَاحِبَ كَلاَمٍ مُنْذُ أَمْسِ وَلاَ أَوَّلِ مِنْ أَمْسِ، وَلاَ مِنْ حِينِ كَلَّمْتَ عَبْدَكَ، بَلْ أَنَا ثَقِيلُ الْفَمِ وَاللِّسَانِ.» فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «مَنْ صَنَعَ لِلإِنْسَانِ فَمًا؟ أَوْ مَنْ يَصْنَعُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيرًا أَوْ أَعْمَى؟ أَمَا هُوَ أَنَا الرَّبُّ؟ فَالآنَ اذْهَبْ

وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأُعَلِّمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ.» فَقَالَ: «اسْتَمِعْ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَرْسِلْ بِيَدِ مَنْ تُرْسِلُ.»" (خروج ٤: ١٠-١٣)

- **راحاب**

كانت زانية في أريحا، انحازت إلى الشعب اليهودي الذي كان على وشك أن يجتاح أرض الموعد. إذ كانت بعيدة النظر، فقد ميزت حقيقة وقوة إله إسرائيل الغير معروف بعد بشكل كبير. لقد سبقت فرأت كيف سيتدخل الله. بسبب هذا أخفت الجاسوسيْن وسمحت لهما بالهروب. بسبب تدخلها غير المتوقع، فقد فازت بحياتها وبأن يكون اسمها في سلسلة أنساب المسيح.

"سَمِعْنَا فَذَابَتْ قُلُوبُنَا وَلَمْ تَبْقَ بَعْدُ رُوحٌ فِي إِنْسَانٍ بِسَبَبِكُمْ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ هُوَ اللهُ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَعَلَى الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ." (يشوع ٢: ١١)

- **جدعون**

في مواجهة موقف سياسي صعب يائس، تنتظم الحياة حول مقاومة قوى الاحتلال. خشيةً أن يتعرض للنهب، يختبئ جدعون ليضرب الحنطة في مكان سري. هناك يزوره ملاك الرب الذي يشجعه بأن يقود شعبه الذي فقدَ بوصلته وأصبح بلا قائد. يبحث جدعون عن مهرب لإحساسه أنه أقل من المسئولية الملقاة عليه، ولشعوره بالعزلة. لكن حين يتقدم الرب الموكب، يصعب ألا نتبعه.

"فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الرَّبُّ وَقَالَ: «اذْهَبْ بِقُوَّتِكَ هذِهِ وَخَلِّصْ إِسْرَائِيلَ مِنْ كَفِّ مِدْيَانَ. أَمَا أَرْسَلْتُكَ؟»" (قضاة ٦: ١٤)

- **إيليا**

عُرِف بعد موته أنه واحد من أكبر أنبياء إسرائيل. لقد رُفِع إيليا إلى السماء مثلما ارتفع في نهاية حياته. في مشهد التجلي يظهر مع موسى ويسوع كممثل لأنبياء العهد القديم. مع ذلك، فلم يكن في إيليا أيٍ من ملامح البطل. إنه يُظهِر ملامح إنسان كثير الخوف وكئيب. إنه يهرب في مناسباتٍ عدةٍ أمام مطاردة الملك ويختبئ. فيتعين على ملاك الرب أن يقوته ويعيد تحفيزه.

"ثُمَّ سَارَ فِي الْبَرِّيَّةِ مَسِيرَةَ يَوْمٍ، حَتَّى أَتَى وَجَلَسَ تَحْتَ رَتَمَةٍ وَطَلَبَ الْمَوْتَ لِنَفْسِهِ، وَقَالَ: «قَدْ كَفَى الآنَ يَا رَبُّ. خُذْ نَفْسِي لأَنِّي لَسْتُ خَيْرًا مِنْ آبَائِي.»" (١ ملوك ١٩: ٤)

- **راعوث**

امرأة، غريبة الجنس، واحدة من الشخصيات الإيجابية الذين كسروا الرتابة اليومية وصنعوا لأنفسهم اسمًا. فتحت لها أمانتها وإخلاصها والتزامها نحو حماتها وإيمانها، مصيرًا مدهشًا. لقد أصبحت واحدة من النساء القليلات في نسب المسيح.

"فَقَالَتْ رَاعُوثُ: «لاَ تُلِحِّي عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَكِ وَأَرْجِعَ عَنْكِ، لأَنَّهُ حَيْثُمَا ذَهَبْتِ أَذْهَبُ وَحَيْثُمَا بِتِّ أَبِيتُ. شَعْبُكِ شَعْبِي وَإِلهُكِ إِلهِي.»" (راعوث ١: ١٦)

- **إرميا**

نبي يمثل نموذجًا لمدة وثبات الخدمة خمس وأربعين سنة. ولالتزامه الشديد لغاية وقضية، تبدو خاسرة للوهلة الأولى، إنه يكاد يصبح ثوريًا

في إطار روحي. رغم ذلك، فإن كل شيء كان يرشحه لأن يكون كاهنًا تقليديًا كأبيه. إنه سيصبح حامل رسالة طالت لأمدٍ ودقة غير متوقعيْن؛ إنه يتنبأ عن تهديد سيتحقق بعد عقوبة تالية. إنه يعاني الوحدة والسجن قبل أن يتم الاعتراف به أخيرًا كأحد كبار أنبياء إسرائيل. إنه يتنبأ بسقوط وخراب أورشليم على يد قوى خارجية وسبي أهلها. ما إن يتحقق ذلك، حتى يتحول ويتنبأ بعودة المسبيين في نهاية المُلك البابلي. لكن هنا، مرة أخرى، عند دعوته، ليس لديه البنيان اللازم أو الاستعداد لمواجهة هذه التحديات التي وُضِعت أمامه.

"فَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيَّ قَائِلاً: «قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ.» فَقُلْتُ: «آهِ، يَا سَيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أَعْرِفُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لأَنِّي وَلَدٌ.» فَقَالَ الرَّبُّ لِي: «لاَ تَقُلْ إِنِّي وَلَدٌ، لأَنَّكَ إِلَى كُلِّ مَنْ أُرْسِلُكَ إِلَيْهِ تَذْهَبُ وَتَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ بِهِ. لاَ تَخَفْ مِنْ وُجُوهِهِمْ، لأَنِّي أَنَا مَعَكَ لأُنْقِذَكَ، يَقُولُ الرَّبُّ.»" (إرميا ١: ٤-٨)

- **مريم**

أُم يسوع. لم يكن أي شيء سابقًا على دعوتها يشير إلى مستقبلها. لكن بطريقة تُبيّن سيادة وسلطان الرب، يدعوها الله لهذا الدور الخاص جدًا. إن خضوعها وخدمتها وإنكارها لذاتها قد صنعت منها الوجه النسائي الذي يميز التاريخ الديني.

"فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلاَكُ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ.» فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!» فَقَالَ لَهَا الْمَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ

وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ.»" (لوقا ١: ٢٨-٣٢)

- **بولس**

بحُكم تكوينه وإرثه العائلي، فقد كان مرشحًا لمناصب عُليا. إنه دارس ومواطن روماني وحَبرٌ يتكلم عدة لغات، وقد أصبح عضوًا في الحكومة اليهودية. لكن، وبحسب ما كتبَ هو مرارًا، لم يقرر هو أبدًا أن يتبع المسيح. بل بالعكس، فالرب نفسه هو مَن دعاه لخدمته.

"بُولُسُ، رَسُولٌ لاَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ بِإِنْسَانٍ، بَلْ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ وَاللهِ الآبِ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ." (غلاطية ١: ١)

إلى كل هذه النماذج الكتابية، يمكن إضافة أعدادًا لا حصر لها من الرجال والنساء من الذين دعاهم الله بطريقة غير مسبوقة وغير عادية. إنني أفكر في هذه الشهادات التي تحبس الأنفاس وذات الأعداد المتزايدة والصادرة من عوالم غير مسيحية، والتي تتكلم جميعها عن الشخص ذو الملابس البيضاء الذي يعلن عن نفسه سواء في رؤى أو أحلام لأشخاص لا يعرفون شيئًا عن الإيمان المسيحي، وبشكل خاص في الأماكن التي لا توجد بها كنائس على الإطلاق. إن هذه الرؤى تدفعهم إلى البحث عن أجوبة لدى المسيحيين ثم المضي في تبعية المسيح والإيمان به. لكن يتبقى السؤال الصعب العسير عن الاختيار: لماذا يتلقى أحدهم دعوة دون غيره؟

أهمية الجذور

ليس هناك شجرة تحيا بلا جذور. إن للجذور ثلاثة أدوار رئيسية. الأول: هو تثبيت الشجرة في التربة لتعطيها مكانة، تكون بها قادرة

على مقاومة جميع العواصف. والثاني: هو الذي أسهبنا في شرحه، أي ضخ العصارة والغذاء والحياة في مجمل تكوين الشجرة. والثالث: أنها تُؤمِّن الانتقال بين المواسم، وبشكل أكثر تحديدًا، خلال فصل الشتاء. إنها تخزن العصارة في الأرض لتطلقها خلال الربيع حين ازدهار الأوراق. إن الجذور تلعب دورًا مطلقًا في حياة الشجرة بكاملها.

إن العامل المشترك لدى كل الشخصيات السابق ذكرها، هي الجذور، أي القيم الأساسية وتدريبًا مناسبًا لنموهم الإنساني والروحي. إن لديهم استعدادًا روحيًا وحساسية تجعل الاستماع إلى الله أسهل. إن كان في البداية وبحسب الظاهر، يصعب رؤية هذه الملامح، إلا أنه سرعان ما تظهر بشكل أوضح بعض ملامح الشخصية.

لدى البشر عادة أن يقيسوا الأشياء بناءً على خبراتهم الشخصية. إنهم يفكون شفرة الأحداث في ضوء ما عاشوه هم. هكذا يحكمون على العالم حسب تعليمهم والقيم التي تسلموها من آبائهم. إن خبرات طفولتهم تشتت أو تركز تفسيرهم للواقع. كل ذلك له علاقة بإشكالية الهوية. كلما زادت الثقة في النفس، كلما زادت القدرة على الانطلاق نحو المستقبل، ومواجهة تحديات الحياة.

لا يختلف اثنان على الدور الذي يلعبه الأهل في تكوين شخصيات أبنائهم سواء ثقافيًا أو مهنيًا وأيضًا جنسيًا. لهذا يحتاج الأمر إلى سنين عديدة لإصلاح تعليم سيئ أو خبيث أو عادات سيئة. عندما تكون الجذور في حالة غير سليمة، فإن الشجرة كلها تتأثر. ينطبق الأمر نفسه على البيئة التي ستنمو فيها الشجرة. ففي أرض خصبة، لا توجد أية مشكلة في مد الجذور والنمو. في حين أنه في الأرض الصخرية، يتعين على الجذور إيجاد خطة مبتكرة لتتمكن من تثبيت الشجرة بشكل جيد كافٍ، ولإيجاد الغذاء ومواجهة الطقس. أيضًا في غابة كثيفة من

الممكن أن يحدث أن البذرة التي نجحت في الإنبات ينتهي بها الأمر أن تغرق في الرطوبة الخانقة المحيطة بها وتختنق جراء قلة الضوء. هكذا تختلف كل حالة وكذلك الأمر في الحياة ذاتها.

قد يكون صعبًا على الأهل أن يوفروا لأولادهم بيئة مُثلى. إنهم يتساءلون فيما بينهم: كيف نمنح الأطفال تعليمًا جيدًا وأن نشهد لهم عن محبتنا فيما نحن نمارس سلطتنا بالقدر المناسب الكافي؟ كيف نتحكم في هامش الحرية التي نمنحها لهم دون أن نترك لديهم انطباعًا بعدم مبالاتنا بهم من جهة، ومن جهة أخرى دون أن نخنقهم حين نُسقِط عليهم مخاوفنا الخاصة؟ وماذا نفعل حين يثيرون أعصابنا؟

بالفعل، فإن كل كائن بشري يتكون وينمو بحسب الإطار الذي ينمو فيه، سواء للأفضل أو للأسوأ. فالإطار الاجتماعي – الثقافي للأهل، مثلاً، يلعب دورًا لا يمكن إغفاله في نجاح الطفل في دراسته. من خلال لقاءاتي العديدة وقراءاتي، فقد لاحظتُ أنه حتى لو كانت الظروف عند البدايات ضعيفة، وأن طفولة ما كانت صعبة بشكل خاص، فذلك ليس سببًا للاستسلام. فإن بعض الأشخاص الذين تمكنوا من التغلب على ما نقصهم عند البدايات الأولى، قد نجحوا نجاحًا مميزًا في حياتهم، على عكس آخرين ممَّن كان كل شيء متاحًا لهم لكنهم استكانوا إليه وقنعوا بما بين أيديهم.

إن صورة الشجرة بحسب المزمور تؤكد ما سبق: فحين يضع شخص ما ثقته في الله بالإيمان، فإنه يستمد طاقته من المياه من النبع الإلهي؛ إنه ليس فقط سيصير سعيدًا واثقًا من نفسه، بل سيتمكن أيضًا من التغلب على الميراث النفسي السيئ والنقص والخبرات المؤلمة بشكل أيسر، بل وينال شفاءً منها. حتى المجرمين، ما إن يتوبوا ويتصالحوا مع خالقهم، حتى يصيروا قادرين على البدء من جديد وتحقيق أعمالاً منتجة إيجابية تؤدي بهم إلى الحياة الأبدية.

التعليم والخبرة

لا ينضج الإنسان جسمانيًا إلا عند سن العشرين. غير أن تكوينه النفسي يحتاج إلى وقت أطول. نحن لا نعلم أنه لا يوجد سن تتوقف عنده القدرة على التعلم. اليوم الذي لا نتقدم فيه، فإننا نتراجع. لذا نتحدث عن التعليم المستدام الممتد بطول العمر.

إن بعض الأشخاص، بما واجهوه في صباهم فيما يختص بالتعليم، يخشون أن يجلسوا على المقاعد المدرسية. إنهم يظنون أن عدم قدرتهم على تحصيل أساسيات القراءة والحساب سيجعلهم دائمًا عاجزين عن ذلك. ربما أن عدم حصولهم على تشجيع أو مساندة أسرية قد جعلهم ينظرون نظرة دونية لأنفسهم ويشكون في قدراتهم. إن هذا موقف مؤسف، يعمل ضد مصلحتهم.

كان أحد أبنائي يعاني من صعوبة في الكتابة ونشاطًا زائدًا. رغم كل معاونة منزلية له في أداء واجباته، لم ينجح في الاستمرار في المدرسة. قلِقنا على مستقبله، لكن ما إن وجد طريقه وتعليمًا قادرًا على تحفيزه، حتى بدأت الأشياء تتغير. بفضل قدرات يدوية مميزة، ولذة العمل في الهواء الطلق، فإنه ليس فقط قد استفاد من كفاءاته، بل استعاد أيضًا ثقته في نفسه وصار سعيدًا. عند نهاية تعليمه، كان مُعلمه هكذا سعيدًا بعمله، حتى أنه عرض عليه أن يمول تعليمًا تكميليًا له حتى يصير متمكنًا تمامًا من مجاله. إن ذلك يثبت أن موقفًا ما ليس يائسًا تمامًا كما قد يبدو.

إن التعليم، الذي يرتكز على التدرب على الأساسيات، يلعبه دورًا خطيرًا في تنمية المعارف والكفاءات في سن البلوغ، وتحقيق الآمال الموجودة والأحلام. لتحقيق ذلك يرتكن كل واحد إلى قنوات تحصيله

الخاصة وقدراته على الأداء: مثل القراءة، تبادل المعلومات، والمشاركة... أي استخدام الأدوات المتعددة بالعلاقة مع المهنة أو الحرفة.

كل شيء يبدأ بالوعي. عندما يكتشف الإنسان نقصًا ما لديه، يبدأ يبحث عن معاونة. من حيث المبدأ، فإنه من المحبذ أن يتطور وأن يعوض ما ينقصه، ما يجبره على الانطلاق نحو المستقبل. إنه يحتاج إلى ألا يضع تركيزه كله على نفسه وأن يثق في نفسه حتى ينفتح على ما لا يتعلمه أو يعرفه بعد، دون أن يحس بالنقد أو الإدانة. إن التواضع يفتح أبوابًا كثيرة داخليًا وخارجيًا. إنه علامة على النضج وعلى القلب الكبير.

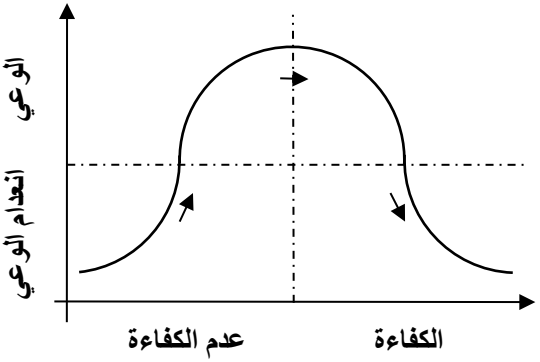

بحسب الأبحاث[١٤]، يتعلق الأمر بمسألة الوعي والكفاءة. ينبغي لعملية المتعلم أن تقود الإنسان إلى حالة من التمكن تصبح معها الكفاءة موجودة إلى حد ممارستها دون وعي أو إحساس بوجودها. إن مَن يعرف كيف يقود سيارة، لا يفكر في وضع يديه أو أقدامه من أجل

[١٤] بحسب ويكيبيديا، "ماسلو"، كان مارتن م. برودويل أول مَن كوَّن هذا النموذج بخطواته الأربع للتعليم في فبراير ١٩٦٩.

التنقل بين السرعات المختلفة. إنها آلية قد تمكَّن منها. لكن قبل ذلك يحتاج المتدرب إلى إدراك عدم كفاءته وقدرته على القيادة. عندها يجلس مع مدرب خبير ويحصل تدريجيًا على الآليات وردود الأفعال اللازمة للقيادة. هذا يقوده إلى القيام باختبار مرتبط بشكل الكفاءة المنشودة. بعد الامتحان، يحتاج إلى ساعات عديدة من الممارسة حتى يصبح كل ما تعلمه آلية تلقائية تعمل بدون وعي منه.

لننظر إلى مثال طفل حديث الولادة. عند ولادته يكون مُنصبًّا على ذاته وبقائه حيًا. بما أنه لا يستطيع الكلام، يظل يُعبِّر بالبكاء عن حاجاته. لكن كلما كبر تعلَّم أن يُعبِّر عن نفسه بشكل أفضل وأن يتعرف على توقعات الأشخاص المحيطين به. تدريجيًا، تنمو قدرته على التجريد وكذا قدرته على التصرف بنفسه. كلما كبر، كلما فكر في العالم المحيط به وفكر في مصلحة الآخرين أيضًا. إن حب الذات الذي كان لديه في بداياته يتحول إلى حب المشاركة والقبول. عندما يصل إلى سن الشباب المبكر، فإنه يسعى إلى اكتساب مهارات التواصل والتواجد الاجتماعي.

ينطبق الأمر ذاته على الشجرة التي لا تعطي ثمارًا في سنواتها الأولى. إنها تركز في البداية على نموها وزيادة جذورها ثم أوراقها. ثم تصبح قادرة على إنتاج ثمار قليلة. أولوياتها هي تقوية الأفرع من أجل الحِمل الثقيل الذي ستحمله. إنها تحتاج إلى إيجاد التوازن بين بيئتها المحيطة، ونمو جذورها، ومتانة جذعها، وازدهار فروعها. هكذا فقط تستطيع أن تزدهر وأن تعطي ثمارًا بوفرة.

كرونوس وكايروس

"لِلْوِلاَدَةِ وَقْتٌ وَلِلْمَوْتِ وَقْتٌ. لِلْغَرْسِ وَقْتٌ وَلِقَلْعِ الْمَغْرُوسِ وَقْتٌ. لِلْقَتْلِ وَقْتٌ وَلِلشِّفَاءِ وَقْتٌ. لِلْهَدْمِ وَقْتٌ وَلِلْبِنَاءِ وَقْتٌ. لِلْبُكَاءِ وَقْتٌ

وَلِلضَّحْكِ وَقْتٌ. لِلنَّوْحِ وَقْتٌ وَلِلرَّقْصِ وَقْتٌ. لِتَفْرِيقِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ وَلِجَمْعِ الْحِجَارَةِ وَقْتٌ. لِلْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ وَلِلانْفِصَالِ عَنِ الْمُعَانَقَةِ وَقْتٌ. لِلْكَسْبِ وَقْتٌ وَلِلْخَسَارَةِ وَقْتٌ. لِلصِّيَانَةِ وَقْتٌ وَلِلطَّرْحِ وَقْتٌ. لِلتَّمْزِيقِ وَقْتٌ وَلِلتَّخْيِيطِ وَقْتٌ. لِلسُّكُوتِ وَقْتٌ وَلِلتَّكَلُّمِ وَقْتٌ." (جامعة ٣: ٢-٧)

تحتاج كل عملية نضوج ونمو إلى وقت. أنا شخصيًا غير صبور، انفعالي، راغبًا أن تحدث الأشياء بشكل متسارع. كم من مرة ذكَّرني فيها الله أن أتسق مع حقيقة أن زمنه ليس هو زمني.

"لأَنَّ أَلْفَ سَنَةٍ فِي عَيْنَيْكَ مِثْلُ يَوْمِ أَمْسِ بَعْدَ مَا عَبَرَ، وَكَهَزِيعٍ مِنَ اللَّيْلِ." (مزمور ٩٠: ٤)

نعم، إن النمو يستغرق وقتًا طويلاً. فقبل أن تتمكن الجذور من أخذ وقتها لتتكون وتنمو، فمن غير المجدي أن نطالب الشجرة بالثمر. فالشجرة التي ليس لها جذور قوية هي معرضة للهلاك عند أول عاصفة تهب عليها وكذلك للجفاف. إن القرارات التي تُتخَّذ على عجَل كثيرًا ما تثبت أنها هشة ومشكوك فيها. فليس مستغربًا أن ترتبط الكمية بالسن. إن الكثير من البالغين يراجعون أنفسهم من مواقف أو تصرفات قد سبق أن دافعوا عنها عندما كانوا أصغر سنًا.

إن اللغة اليونانية تُميِّز فكرة الزمن الخطي "كرونوس"، الذي يمكن قياسه ووضعه في رزنامة، بأيام وشهور وسنين؛ وبين فكرة "كايروس"، أي الزمن المُواتي، أي الوقت المناسب الذي يجب التحرك فيه، الوقت المحدد الذي التصرف قبله يكون مبكرًا والتصرف بعده يكون متأخرًا جدًا. إن كلمة "كايروس" ليست كلمة اعتباطية، إنها تُستخدَم ٨٦ مرة في العهد الجديد. لأنه وبحسب الله، فإن فكرة الزمن تتجاوزنا. إن سر الزمن لا يعلمه إلا الله. لكن الأمر المؤكد هو أنه

يعرف تمامًا الوقت المناسب الذي يتدخل فيه هو. ويحدث أن نكون نحن الأشخاص الذين يستخدمهم لكي يحقق بهم أهدافه.

بشكلٍ منتظم، يذكّرني الله أن أرتأي إلى التعقل والمنطق. إنه يعمل في قلبي ويجعلني أكثر اتضاعًا أمام عظمة جلاله وألوهيته. إن ما أفعله لأجله ليس أكثر ما يهم الله، بل قدرتي في الدخول معه في علاقة في اللحظة التي يحددها هو.

لقد تعلمت أن الله يهمه تصرفاتي أكثر من إنجازاتي! عندما أحاول جعل الأشياء تُسرع نحو الغاية التي حددتها لها، أجد الأمور تبطئ، وأجدني أتوقف في مساري؛ في حين أنني إذا تقدمت وقلبي مفعم بالسلام، منفتحًا على ما لا أتوقعه ومصغيًا لما حولي، يقودنا الله إلى تحقيق خططه وغاياته.

إن نموذج بولس الرسول يوضح جليًا هذا الأمر. لقد امتلكه الله تمامًا بشكل لحظي قلبَ جميع موازين حياته وكيانه. لم يكن أي شيء يشير إلى تحول مثل هذا في شخصيته. لقد تدخل الرب بطريقة سيادية في اللحظة التي قررها واختارها.

إن دخول بولس إلى المجتمع المسيحي قد غيَّر من العمق الخاص بطبيعة الكنيسة ذاتها. بالفعل، لم تكن المسيحية لتعرف النمو والامتداد الذي عرفته بدون عمل هذا الرسول الاستثنائي الذي عرف كيف يقدم الإنجيل للعالم الوثني، مستخدمًا لغة ومفردات يستطيع هذا العالم أن يفهمها، وبدون مجهوداته التي لا تكل والتي قادت بولس إلى أعلى الدوائر الرومانية.

"مَا أَكْرَمَ أَفْكَارَكَ يَا اَللهُ عِنْدِي! مَا أَكْثَرَ جُمْلَتَهَا!" (مز ١٣٩: ١٧)

الجذور اليهودية

لا يمكننا أن نتكلم عن جذور الإيمان دون أن نشير إلى الشعب اليهودي. كان يسوع يهوديًا وكانت رسالته مأخوذة من الكتابات المقدسة والتقاليد السارية في زمانه. كان بولس حبرًا يهوديًا ومُعلمًا مسيحيًا بآنٍ واحد، وهو قد تأمل طويلاً في هذه الهوية المزدوجة. وهو يعطينا ملمحًا صغيرًا من ذلك في رسالة رومية ***(أصحاحات ٩-١١).***

فهو أولاً يلاحظ أن دعوته قد نبعت من إرادة الله الحرة. وكان قبلاً يفعل كل شيء في سبيل إعادة اليهود الذين آمنوا بالمسيح، إلى حظيرة التقليد. كان يقود، بطريقته الخاصة، "جهادًا"، أي حربًا مقدسة. لكن لقاءً فجائيًا مع مَن كان يضطهده قد غيَّر حياته.

أدى اكتشافه للحق الجديد إلى تدمير قناعاته وإعادة توجيه جذوره. بين عشية وضحاها، تغيرت نظرته إلى العالم، وكذلك فهمه للكتابات المقدسة. بالفعل، إن كان الله قد دعا الأمم لنفسه وشفاهم وغيَّر قلوبهم وأعطاهم روحه القدوس، فبأي حق يشكك الناس في قراره؟

"بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا: «لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هكَذَا؟»" (رومية ٩: ٢٠)

ثم بعد ذلك يحزن بولس لرؤية اخوته وأخواته اليهود يغلقون قلوبهم عن الإنجيل. لقد ذاق هو نفسه من خلال اختبار تجديده حرية عميقة، في حين كان قبلاً يراعي حرفيًا الناموس بكل صرامة، لكن ها هو الآن يرى الروح القدس يعمل بآيات وعجائب لم يُسمَع بها من قبل. لقد صارت حياته ملآنة هكذا فرحًا وغِنى، حتى أن صرامة وفكر الماضي

قد تحولا إلى سعادة يشارك بها الآخرين. تحوَّل حرف الناموس إلى خلاص بالنعمة.[١٥]

رغم كل شهادته وعمله وسط أهله، لم يملك بولس إلا أن يلاحظ كيف لم يرفض اليهود فقط دعوته، بل قد صاروا ألدَّ أعدائه أيضًا. لقد عملوا معه ما سبق أن فعلوه بيسوع إذ اضطهدوه وحاولوا قتله.

كانت المسألة بالنسبة له هي معرفة إن كان الله قد رفض شعبه بشكل نهائي. لكنه يجيب بالنفي. إن الرب لا يتغير. إذًا فوعوده لإسرائيل ليست مسألة محل نقاش. لكن بما أن اليهود غير قادرين على إدراك مسيحهم، فإن الله يستخدم الأمم لإغارة الشعب اليهودي ***(رو ١١: ١١).***

هنا يستخدم بولس تصوير شجرة الزيتون: فالشعب اليهودي يُشبَّه بشجرة زيتون مقابل الأمم المُشبَّهين بشجرة زيتون برية. فإن ما يتبقى هي الجذور المؤسسة على الوعد لإبراهيم والمُعلَنة لموسى. فالخلاص إذًا يأتي من اليهود! لكن رفضهم ليسوع أدى إلى أن الله قطع أغصان الزيتونة المغروسة وطعَّم مكانها أغصان الشجرة البرية. هكذا، فإن التعايش بين اليهود والمسيحيين هي خطوة نحو الخلاص المشترك.

"فَإِنْ كَانَ قَدْ قُطِعَ بَعْضُ الأَغْصَانِ، وَأَنْتَ زَيْتُونَةٌ بَرِّيَّةٌ طُعِّمْتَ فِيهَا، فَصِرْتَ شَرِيكًا فِي أَصْلِ الزَّيْتُونَةِ وَدَسَمِهَا، فَلاَ تَفْتَخِرْ عَلَى الأَغْصَانِ. وَإِنِ افْتَخَرْتَ، فَأَنْتَ لَسْتَ تَحْمِلُ الأَصْلَ، بَلِ الأَصْلُ إِيَّاكَ يَحْمِلُ! فَسَتَقُولُ: «قُطِعَتِ الأَغْصَانُ لأُطَعَّمَ أَنَا!» حَسَنًا! مِنْ أَجْلِ عَدَمِ الإِيمَانِ قُطِعَتْ، وَأَنْتَ بِالإِيمَانِ ثَبَتَّ. لاَ تَسْتَكْبِرْ بَلْ خَفْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللهُ لَمْ يُشْفِقْ عَلَى الأَغْصَانِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَعَلَّهُ لاَ يُشْفِقُ عَلَيْكَ أَيْضًا!" (رومية ١١: ١٧-٢١)

[١٥] رومية ٣: ٢٣.

الجزء الرابع: الجذع والأغصان

يمثل الجذع والأغصان الجزء الظاهر والدائم من الشجرة. إنهم امتداد الجذور لكن بوظائف مختلفة تمامًا في الأداء والتكوين. فإن كانت الجذور من حيث المبدأ منفتحة على محيطها وقادرة على امتصاص كل أنواع المغذيات، فإنها ما إن تخرج من الأرض، تُكوِّن الشجرة بدنًا ذا متانة يحميها من العواصف ومن التغييرات، خصوصًا تلك المرتبطة بالطقس. إنها تُكوِّن لحاءً يحميها من البرد ومن الجفاف ومن الطفيليات.

بناءً على نوعها ومكان زراعتها، فإن لدى كل شجرة قدرًا من المرونة. إنها يجب أن تتمازج مع محيطها وتنسجم معه سواء أكانت مزروعة على حافة فتقاوم الريح أو أن تكون قادرة على تحمُّل أوزانًا كبيرة من البلح. إن شجرة الأرز من لبنان، وهي شجرة عالية جدًا، ويتعين عليها أن تقاوم رياحًا عنيفة، من المعروف أنها تُكوِّن جذورًا مرنة بشكل خاص وقادرة على إفراز نوعًا من الزيوت يُحسِّن من عملية التمدد والانكماش.

جمال وكرم

"جَعَلْتُهُ جَمِيلاً بِكَثْرَةِ قُضْبَانِهِ، حَتَّى حَسَدَتْهُ كُلُّ أَشْجَارِ عَدْنٍ الَّتِي فِي جَنَّةِ اللهِ." (حزقيال ٣١: ٩)

يكمن جمال الشجرة في بنيانها وأغصانها. يجب على الأخيرة أن تصمد أمام جميع المواسم، أن يكون لها أوراقًا أو لا يكون. إنها تنمو بشكلٍ مطرد منتظم حتى تتمكن من تكوين أكبر مساحة معرضة لضوء الشمس. إنها تحتاج الأوراق لإنتاج الأوكسچين وإلى الثمار لتكتسب

لونًا وتنضج. كلما كبرت الشجرة، كلنا ازدادت وتمددت الأغصان. لابد لها وهي تكبر أن تحافظ على انسجام بين الأغصان والتوازن في وزنها وتعرضها لريح. هذا يعطيها شكلاً جميلاً ويحميها من الانحناء بشكل مبالغ فيه أو أن تنكسر.

بالنسبة لي، فإن الشجرة بهدف أن تُزيد وصولها للضوء فإنها تتخذ موقفًا إيجابيًا في مواجهة الحياة. إنها تختار أن تنفتح على محيطها أكثر من أن تنطوي على نفسها. إنها تتبنى موقفًا يتسم بالكرم وليس بالحماية. لا أملك إلا أن أرى فروعًا وكأنها أيادٍ ممتدة نحو محيطها. إن كان العالم قد أثبت أن الأشجار تتواصل فيما بينها عبر جذورها، فإنني أرى في الأغصان أكفٍ مفتوحة علامة على تحية وعطاء.

إن الأغصان مكان تأوى إليه العصافير، وترتاح تحته الحيوانات. إنها تمنح ظلاً في وقت الحر، مما يتيح لنباتات أخرى ملجأ ومكانًا تنمو فيه وتزدهر بحرية. إنها تخلق جوًا من الترحيب والتعاون، وتلعب دورًا أساسيًا في النظام البيئي، بمعناه الواسع .

أبعاد الحب الثلاثة

"فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى وَالْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ.»" (متى ٢٢: ٣٧-٤٠)

تنمو الشجرة وتتطور في الأبعاد الثلاثة في نفس الوقت. إنها تنمو نحو السفل عبر الجذور، ونحو الأعلى في البُعد الرأسي والأفقي، لكن كذلك في البُعد الأفقي في اتجاه جيرانها. إن جمالها يكمن في انتشارها

والمساحة التي تغطيها واتزان نِسَبها. كذلك الحال مع الرجل الناجح الذي لا يخشي الدخول في علاقات مع المحيطين به.

يؤكد يسوع على أبعاد الحب الثلاثة:

(أ) الرأسية، نحو الله. **(ب)** الأفقية، نحو الآخرين. **(ج)** الذاتية، أي نحو النفس.

إن الإنسان لا يمكنه أن يتمم الناموس إلا إذا نمَّى النواحي الثلاث بالتوازي. إن الحب هو عامود الإيمان. إن غاب الحب، يصبح الناموس الإلهي لا إنسانيًا ويتحول إلى كتالوج جاف من القواعد الأخلاقية. وإذا فقدَ واحدًا من مكوناته الثلاثة، يصبح التوازن الكوني في خطر.

إن تقديرًا سليمًا للنفس يضع أساسًا طيبًا مع الآخرين ومع الله. فكيف أحترم خالقي إن كنت لا أقبل الشكل والطريقة التي صنعني بها؟ وكيف أحب قريبي إن لم أقبل نفسي كما هي؟ وإلا فإن قريبي يظل منافسًا لي وعدوًا.

في سفر الرؤيا، نجد وصف أورشليم السماوية على شكل مكعب، أضلاعها متساوية مع ارتفاعها وذات أبعاد أخَّاذة. إن سبق ورأينا مدنًا مربعة الشكل فليست واحدة منها مكعبة. إنه من العسير عمليًا البناء في الاتجاه الرأسي، حتى إن كانت ناطحات السحاب في أيامنا منتشرة جدًا. ومع هذا، نجد المدينة السماوية على هذا الوصف. لماذا؟

لقد استنتجتُ أن الأسباب كامنة في أبعاد الحب. بالنسبة لله، تكمن الحماية في التوازن ذو الأبعاد الثلاثية. فرمزيًا، وحتى في الأبدية، من المهم الحفاظ على الانسجام بين الأنا، والآخر، والله.

"وَالَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعِي كَانَ مَعَهُ قَصَبَةٌ مِنْ ذَهَبٍ لِكَيْ يَقِيسَ الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا." (رؤيا ٢١: ١٥)

من جهة أخرى، فإن بولس يشير إلى هذا المفهوم في رسالته إلى أفسس، حين يتحدث عن محبة المسيح. الأمر بالنسبة له يتعلق بصفة من صفات القداسة، بل بقوة ذات طبيعة قوية إلى حد أن لا شيء يصفها سوى وصف متعدد الأبعاد.

"لِيَحِلَّ الْمَسِيحُ بِالإِيمَانِ فِي قُلُوبِكُمْ، وَأَنْتُمْ مُتَأَصِّلُونَ وَمُتَأَسِّسُونَ فِي الْمَحَبَّةِ، حَتَّى تَسْتَطِيعُوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلُوُّ، وَتَعْرِفُوا مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ، لِكَيْ تَمْتَلِئُوا إِلَى كُلِّ مِلْءِ اللهِ." (أفسس ٣: ١٧-١٩)

الفكر الإيجابي

إن كانت المحبة نحو الله والقريب تنبع من قبولنا لذواتنا، فلا يكفي أن نردد ذلك لأنفسنا، فإننا جميعًا لدينا من الأسباب التي تجعلنا نشك في أنفسنا، انطلاقًا من شكلنا الجسدي. إننا نجد صعوبة في إيجاد بصمة الله فينا. إننا نعجز عن الاندهاش من كوننا مخلوقات رائعة ***(مزمور ١٣٩: ١٤)***. كل ما يحيط بنا يدفعنا لتكوين فكرة ما عن الكمال، فالصورة التي يواجهها مجتمعنا بها كل يوم تضعنا في مواجهة ما ينقصنا. بلا شك أننا جميعًا مهيئين لأن نصل للكمال، غير أن الآخرين يجعلوننا نعتقد أن ما نما وتطور فينا وصار له تأثير ووجود، هو أقل أهمية مما لم يتكون فينا بعد.

لقد دعانا الله كما نحن، بالنسبة له لا يوجد مَن لا يستحق، بل يعتمد الأمر على ما نقبل أن نكون عليه وعلى ما نصنعه بهذه الهدية

الموضوعة بين أيدينا. إنه يصالحنا على بشريتنا ويمنحنا الغفران. هكذا، مهما كانت أخطاءنا وعيوبنا ونقائصنا، فإنه يقبلنا كما نحن وبلا لوم.

"إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا." (٢ كورنثوس ٥: ١٧)

كل منا يتصرف بشكلٍ مختلف في مواجهة ظروف الحياة. هناك مَن يرون النصف الفارغ من الكوب بشكل مستمر كلما تعرضوا لأمور مضادة. لكن هناك مَن يسعون بالنصف الممتلئ من الكوب ويعرفون كيف يقبلون ما يحدث لهم بنوع من الفلسفة والتفاؤل.

أعترف أنني ولوقتٍ طويل تبنَّيتُ موقفًا سلبيًا تجاه الظروف. كنت أتخيل جميع الاحتمالات باحثًا عن مبررات تجعلني دائم النقد معتقدًا أنني بذلك شخص واقعي. في المدرسة حيث كنت أتدرب كانوا يدعونني "روشا الكارثي". إلى ذلك كنت أضع أمامي جميع الاحتمالات السيئة. لم أكن أفتخر بذاك اللقب. لحسن الحظ أن الله قد غيَّر تدريجيًا من شخصيتي وحفزني لمواجهة تحديات متصاعدة الشدة.

سعت السيكولوچية الإيجابية التي ألَّفها مارتن سليجمان، رئيس جمعية علم النفس الأمريكية، إلى محاولة تحسين حياة الأفراد. كيف لا ينساق الإنسان مع تيارٍ يهتم بكل ما سوف يُحسِّن وجودنا؟ مساعدة الناس على أن يكونوا أكثر سعادة مما لو تركناهم لأنفسهم، والتفكير معهم في الجهود التي يستطيعون تحقيقها لكي يستفيدوا من الحياة بشكلٍ أفضل، ومساعدتهم على النظر إلى الحياة بنظرة أكثر إيجابية بدلاً من تلك النظرة الاكتئابية.[١٦]

[١٦] مأخوذة من موقع: www.femmeactuelle.fr أو www.liguedesoptimistes.fr

من خلال تدريبات بسيطة، يستطيع الفكر الإيجابي أن يساعدنا على إعادة ترتيب الطريقة التي نفهم بها ما يحدث لنا وأن نتصرف بطريقة أفضل في مواجهة الظروف المضادة. إنها تدعونا لتركيز أبصارنا على الأمور الإيجابية في حياتنا، وعلى ما نتعلمه من المواقف المختلفة، وحتى الكريهة منها والشائكة. إن هذا المبدأ الإنساني والمعاصر جدًا هو أيضًا مبدأ كتابي بعمق. أقوي مثال له بالنسبة لي هو بولس الرسول. لقد خدم الرب يسوع مدة ٣٥ سنة بلا مأوى، مُطارَدًا باستمرار وبلا ربُط أسرية. لقد ضُرِب مرارًا كثرة وجُلِد ورُجِم وسُجِن ظلمًا. غرقت السفينة وكاد يموت. بدلاً من أن ينهزم ويكتئب، فقد جعلته هذه الظروف أقوى.[١٧]

"وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ." (رومية ٨: ٢٨)

كان أيوب هو الشخص الآخر الذي ألهمني في مناسباتٍ عدة. لقد فقدَ ممتلكاته، ثم أولاده قبل أن يُصاب في صحته، ثم فقدَ مساندة زوجته له. بدلاً من تعزيته، بحث أصحابه عن أسباب ألمه. لقد رأوا فيها نوعًا من الدينونة الإلهية، ما يرفضه أيوب بشكلٍ قاطع، وخلاصة السفر تدعم ذلك. إن ضربة قدرية كهذه لا يجب أن تفسد علاقته بالله. إن أيوب يُعلّمنا مبدأ سادَ على حياته بأسْرها، جملة ملآنة حكمة وقوة.

"وَقَالَ: «عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَانًا أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ. الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا.»" (أيوب ١: ٢١)

في حياتي الخاصة والعملية، كثيرًا ما تعرَّضتُ لمواجهاتٍ وخيبات أمل. ففي حين كنت متجهًا بقوة نحو العمل الرعوي واستثمرتُ فيه كل

[١٧] راجع ٢ كورنثوس ١١: ٢١-١٢: ١٠.

طاقتي، فقد أغلقَت السلطات في الكنيسة المُصلحة الأبواب في وجهي بعد خمس سنواتٍ من الإعداد والعمل على ذلك. كان من الممكن أن أتمرد وأحاول فتح الباب عند مجتمع كنسي آخر. في فرنسا مثلاً، كان البحث عن رعاة أمرًا مطلوبًا بشكلٍ خاص. لكنني فضَّلت أن أرى أن هذا الطريق قد أغلقه الله شخصيًا. بعد فترة من الشك ومن البحث المكثف، انفتحت أخيرًا أبواب أخرى، منحتني فرصة التطور والنمو مهنيًا بشكل لم أكن أتخيله في البداية.

بعد خمس عشرة سنة، وبعد أن اجتزتُ بنجاح اختبارات منصب نائب مدير مدرسة احترافية، كنت من أجله قد تركت منصبًا جيدًا ذا دخل جيد ومستقر في مؤسسة فيدرالية، نلت رخصة مبكرة عن موعدها بستة أشهر من بدء عملي. لكن المدير الذي اختارني لهذا العمل، سرعان ما ترك المكان وحل محله آخر ليس من ذات المؤسسة. هذا ما إن وصل، حتى قرر أن وظيفتي لا لزوم لها وأعفاني من منصبي مع أني كنت عائدًا للتو من رحلة شهر العسل! يا للصدمة! أي خيبة أمل! لكن حتى في موقفٍ كهذا، فقد فضلت أن أقبل الأمر بدلاً من أن أثور. هل كان لله خطة أخرى لي؟ بالفعل، بعد شهريْن تم تعييني كمدير للمؤسسات الاجتماعية لجيش الخلاص، وهي مهمة تقع بين الإدارة والعمل الروحي.

بإمكاني أن أذكر مواقف أخرى كثيرة كان من السهل أن تؤدي بي إلى الاكتئاب أو التمرد على الله. هذه الأحداث من الممكن أن تضرب أي منا في أي وقت أو مكان. لقد تعلمت مثل أيوب، أنه يجب قبولها وأن نشكر الله في جميع الظروف، لأنه كثيرًا ما استخدم هذه اللحظات الحرجة ليتكلم إلى قلوبنا وليجعلنا ننمو. هذه هي رسالة ***(مزمور ٣٧)*** أن يعطينا الرب سؤل قلبنا ما يستتبع ذلك من سعادة، ما دمنا نضع في المقام الأول ثقتنا فيه وفرحنا به.

"اتَّكِلْ عَلَى الرَّبِّ وَافْعَلِ الْخَيْرَ. اسْكُنِ الأَرْضَ وَارْعَ الأَمَانَةَ. وَتَلَذَّذْ بِالرَّبِّ فَيُعْطِيَكَ سُؤْلَ قَلْبِكَ. سَلِّمْ لِلرَّبِّ طَرِيقَكَ وَاتَّكِلْ عَلَيْهِ وَهُوَ يُجْرِي، وَيُخْرِجُ مِثْلَ النُّورِ بِرَّكَ، وَحَقَّكَ مِثْلَ الظَّهِيرَةِ." (مزمور ٣٧: ٣-٦)

الفرح

"فَقَالَ لَهُمُ: «اذْهَبُوا كُلُوا السَّمِينَ، وَاشْرَبُوا الْحُلْوَ، وَابْعَثُوا أَنْصِبَةً لِمَنْ لَمْ يُعَدَّ لَهُ، لأَنَّ الْيَوْمَ إِنَّمَا هُوَ مُقَدَّسٌ لِسَيِّدِنَا. وَلاَ تَحْزَنُوا، لأَنَّ فَرَحَ الرَّبِّ هُوَ قُوَّتُكُمْ.»" (نحميا ٨: ١٠)

إن موقف نحميا بأن لا يفقد الإنسان لذة العيش لهو موقف نموذجي. فعلى الرغم من كل المعاكسات والتهديدات الحقيقية على حياته، فإنه يرفض أن يثنيه شيء أو أحد عن هدفه بإعادة بناء أسوار أورشليم. إن تموضُع الإيمان هذا يتعدى فكرة التفكير الإيجابي البسيطة. إنه يعتمد على حالة داخلية واعية، التي تمنحه صفاء الذهن لكي يبطل مخططات أعدائه وأن يحافظ على موقف مثالي من الفرح.

إن الفرح يتجاوز التفكير الإيجابي، ولكن أيضًا فكرة اللذة. إن مصدر الفرح، عكس مصدر اللذة، يأتي من الداخل. إن كانت اللذة سهلة المنال بمجرد إثارة المخ،

فإن الفرح والبهجة يتطلبان تركيزًا على النشاط. الفرح يجيء حين يتجاوز الشخص الاحتياجات المبرمجة وينجز شيئًا، أفضل، غير متوقع. يتميز الفرح بتحرك للأمام، بإحساس الإنجاز، والتجديد والابتكار.[١٨]

[١٨] م. تشزنميهالي، الحياة، ص ٧٦.

لقد جعل الرسول بولس من الفرح أولوية في حياته. فنجد في رسائله أكثر من أربعين إشارة لكلمة فرح. فمهما حدث فقد كان يرفض أن ينساق لما تراه عيناه، بل يركزهما على الإيمان والفرح الذي ينبع منه. إنه يقبل الشتائم والتعييرات والصعوبات، بفرح. لأنه هكذا يخرج منها قويًا منتصرًا ***(٢ كورنثوس ١٢: ١٠)***. لكن ليس معنى ذلك أن هذا الأمر يحدث تلقائيًا، فالفرح أمر يجب أن يتدرب عليه الإنسان ***(رومية ١٢: ١٢؛ ٢ كورنثوس ١: ٢٤؛ غلاطية ٤: ١٥)***. إنه ثمر من ثمار الروح القدس ***(غلاطية ٥: ٢٢؛ ١ تيموثاوس ١: ٦)***. ومَن يعطي المال ويهتم بالفقراء يجب أن يفعل ذلك بفرح ***(رومية ١٢: ٨؛ ٢ كورنثوس ٩: ٧)***.[١٩]

قوة التسبيح

"اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا. لِيَكُنْ حِلْمُكُمْ مَعْرُوفًا عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ. اَلرَّبُّ قَرِيبٌ. لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ. وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ."
(فيلبي ٤: ٤-٧)

في سني مراهقتي، جذبني محتوى كتاب لم يفارقني حتى اليوم: *"من السجن إلى التسبيح"*، لمؤلفه م. كاروثرز.[٢٠] كان قسًا بالجيش الأمريكي، وقد اختبر قوة التدخل الإلهي من خلال التسبيح، وهو يذكر لنا أمثلة لا حصر لها من أشخاص تبدلت حياتهم بعدما شُرِح لهم المبدأ الخاص بالتسبيح. إن التسبيح ينبع من حالة للنفس تتجاوز الوقت

[١٩] مأخوذ من كتاب ديديه روشا، بولس النموذج الاستراتيجي، ص ٥٨.
[٢٠] راجع السيرة الذاتية.

الإيجابي السابق ذكره. فالقدرة على شكر الرب، حتى لو كانت الرياح مضادة، تتطلب في الحقيقة تغييرًا عميقًا لميلنا الطبيعي. يتعلق الأمر بتكوين وتطوير موقفًا قلبيًا ونظرة إيمانية لا يعتمدان على الظروف، بل على الوعود الإلهية.

"لأَنَّنَا بِالإِيمَانِ نَسْلُكُ لاَ بِالْعِيَانِ." (٢ كورنثوس ٥: ٧)

لقد اختبر بولس ذلك في مناسباتٍ عديدة، فهو الذي يدعونا أن ننمي فرح الرب داخلنا في جميع الظروف. وهذا نراه في رسالة فيلبي التي كتبها وهو في السجن. رغم أن حركته كانت مقيدة، لكنه كان سعيدًا بما يأتيه من أخبار مُركِّزًا عينيه على عمل الله الذي يعمله بدلاً من التركيز على حالته الخاصة المقيدة بالأغلال.

واقعة أخرى يذكرها لنا سفر الأعمال، حين كان بولس مسجونًا مع سيلا، مُتَّهَمين معًا بأنهما صانِعا قلاقل. كانا قد أخرجا روحًا شريرًا من عرَّافة كانت تطاردهما منذ عدة أيام. لكن بدلاً من أن يجعلا الظروف تقهرهما، فقد راحا يُسبِّحان الله في عمق السجن. وهذه اللحظة عينها هي التي اختارها الله ليحررهما بشكلٍ معجزي.

"وَنَحْوَ نِصْفِ اللَّيْلِ كَانَ بُولُسُ وَسِيلاَ يُصَلِّيَانِ وَيُسَبِّحَانِ اللهَ، وَالْمَسْجُونُونَ يَسْمَعُونَهُمَا." (أعمال الرسل ١٦: ٢٥)

إن كثيرًا من أصحاب المزامير يرفعون إلى الله شكواهم من شر البشر، لكنهم في الوقت نفسه يدعون أنفسهم لتسبيح الله، فكأنهم يأمرون ذواتهم أن يفعلوا ذلك، مما يثبت مدى صعوبة التسبيح وسط الظروف الصعبة والحزن، لكمن بالكمية والقوة والتحفيز الكامن وراء ذلك.

"بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ." (مزمور ١٠٣: ١)

"ذَابِحُ الْحَمْدِ يُمَجِّدُنِي، وَالْمُقَوِّمُ طَرِيقَهُ أُرِيهِ خَلاَصَ اللهِ."
(مزمور ٥٠: ٢٣)

إننا نجد في العهد القديم مناسبات عدة يتدخل فيها الله من خلال التسبيح. في الهيكل، لم تنقطع الموسيقى قط، في أعياد اليهود. عند كل انتقال من مكان لآخر، خصوصًا في مسيرة البرية، كانت التسابيح تتقدم الرَكب. لقد كانت تلك تحيط بتابوت العهد، الهيكل المتنقل، وتغرقه في التسابيح. أمام أسوار أريحا المنيعة، لم تكن هناك حاجة للحرب ***(يشوع ٦)***، بل يأمر الله بالطواف حول المدينة لستة أيام. في اليوم السابع كان على الإسرائيليين أن يطوفوا سبع مرات، ثم يقومون بهتاف قوي. في هذه اللحظة يتدخل الله ويجعل الأسوار تنهدم.

مثال آخر في ***(٢ أخبار الأيام ٢٠)***، مفيد أن نتأمله، عن الملك يهوشافاط الذي وجد نفسه في مواجهة عدة أمم قد أتوا لمحاربته. يقول الكتاب أن يهوشافاط قد خاف ***(عدد ٣)*** بسبب أن قواته كانت أقل كثيرًا من تلك الآتية عليه. لكنه يحسن التصرف، فبدلاً من الارتباك، نجده يتوجه إلى الله ولم يتأخر رد الله عليه كثيرًا. بل أن رده كان يفوق توقعات يهوشافاط. هذه الحرب ليست حربك! إذًا فقد ملأته الطمأنينة وراح يُسبِّح الله واضعًا ثقته فيه. أما ما حدث بعد ذلك فهو ليس أقل من معجزة.

"فَقَالَ: «اصْغَوْا يَا جَمِيعَ يَهُوذَا وَسُكَّانَ أُورُشَلِيمَ، وَأَيُّهَا الْمَلِكُ يَهُوشَافَاطُ. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ لَكُمْ: لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَرْتَاعُوا بِسَبَبِ هذَا الْجُمْهُورِ الْكَثِيرِ، لأَنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ لَكُمْ بَلْ للهِ. غَدًا انْزِلُوا عَلَيْهِمْ. هُوَذَا هُمْ صَاعِدُونَ فِي عَقَبَةِ صِيصَ فَتَجِدُونَهُمْ فِي أَقْصَى الْوَادِي أَمَامَ بَرِّيَّةِ يَرُوئِيلَ. لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحَارِبُوا فِي هذِهِ. قِفُوا اثْبُتُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ مَعَكُمْ يَا يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمُ. لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَرْتَاعُوا. غَدًا اخْرُجُوا

لِلِقَائِهِمْ وَالرَّبُّ مَعَكُمْ.» فَخَرَّ يَهُوشَافَاطُ لِوَجْهِهِ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلُّ يَهُوذَا وَسُكَّانُ أُورُشَلِيمَ سَقَطُوا أَمَامَ الرَّبِّ سُجُودًا لِلرَّبِّ. فَقَامَ اللاَّوِيُّونَ مِنْ بَنِي الْقَهَاتِيِّينَ وَمِنْ بَنِي الْقُورَحِيِّينَ لِيُسَبِّحُوا الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ جِدًّا.

وَبَكَّرُوا صَبَاحًا وَخَرَجُوا إِلَى بَرِّيَّةِ تَقُوعَ. وَعِنْدَ خُرُوجِهِمْ وَقَفَ يَهُوشَافَاطُ وَقَالَ: «اسْمَعُوا يَا يَهُوذَا وَسُكَّانُ أُورُشَلِيمَ، آمِنُوا بِالرَّبِّ إِلهِكُمْ فَتَأْمَنُوا. آمِنُوا بِأَنْبِيَائِهِ فَتُفْلِحُوا.» وَلَمَّا اسْتَشَارَ الشَّعْبَ أَقَامَ مُغَنِّينَ لِلرَّبِّ وَمُسَبِّحِينَ فِي زِينَةٍ مُقَدَّسَةٍ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ أَمَامَ الْمُتَجَرِّدِينَ وَقَائِلِينَ: «احْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ.» وَلَمَّا ابْتَدَأُوا فِي الْغِنَاءِ وَالتَّسْبِيحِ جَعَلَ الرَّبُّ أَكْمِنَةً عَلَى بَنِي عَمُّونَ وَمُوآبَ وَجَبَلِ سِعِيرَ الآتِينَ عَلَى يَهُوذَا فَانْكَسَرُوا." (٢ أخبار الأيام ٢٠: ١٥-٢٢)

إن في التسبيح قوة لا تُصدَّق. إن فعل تسبيح الله يحرر من الخوف ويفتح قنوات بركة غير متوقعة. لقد اختبرتُ ذلك في مناسباتٍ عديدة. إنه في فترات التسبيح يحدث أن أتلقَّى توجيهات إلهية لما يجب أن أفعله. بعد فترات التسبيح يكون حضور الله أقوى ما يكون، فاتحًا قنوات شفاء مميزة جسديًا وروحيًا. إن قوى الشر تنهار عندما نُسبِّح الله.

في المؤتمرات، حينما تكون فترات التسبيح قوية جدًا، مثلما حدث معي في مؤتمر مصر سنة ٢٠١٨، فإن الكلمات البشرية تلمس الحاضرين بصرف النظر عما يُقال. لقد ذُهِلتُ أنا شخصيًا من مسحة الروح القدس التي كانت تثير التوبة والدموع لدى الحاضرين.

إن الشجرة بفروعها الممتدة تشبه بالنسبة لي مَن يرفع ذراعيْه نحو السماء للتسبيح والحمد. لا يهمها البرق والمطر، فإن فروعها تبقى

مرفوعة نحو السماء باستمرار. لا يمكنني إلا أن أتذكر موسى وقد كبر، حين يقف على قمة التل يتشفع لأجل شعبه في المعركة. فحين كان يرفع يديْه نحو السماء كان شعبه ينتصر، وحين كان يتعب فيخفضها كان الشعب ينهزم. بمساعدة مَن حوله أبقى ذراعيْه مرفوعتيْن إلى فوق حتى انتصر الشعب. ألا نستطيع بلمحة إلهية أن نرى كيف نحن ضعفاء بمفردنا؟ إننا نحتاج إلى دعم الآخرين ومساندتهم، حتى في التسبيح!

"وَكَانَ إِذَا رَفَعَ مُوسَى يَدَهُ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَغْلِبُ، وَإِذَا خَفَضَ يَدَهُ أَنَّ عَمَالِيقَ يَغْلِبُ. فَلَمَّا صَارَتْ يَدَا مُوسَى ثَقِيلَتَيْنِ، أَخَذَا حَجَرًا وَوَضَعَاهُ تَحْتَهُ فَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَدَعَمَ هَارُونُ وَحُورُ يَدَيْهِ، الْوَاحِدُ مِنْ هُنَا وَالآخَرُ مِنْ هُنَاكَ. فَكَانَتْ يَدَاهُ ثَابِتَتَيْنِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ. فَهَزَمَ يَشُوعُ عَمَالِيقَ وَقَوْمَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ." (خروج ١٧: ١١-١٣)

التقليم

إن أي شجرة يعتني بها أحد، فإنه حتمًا يقوم بتقليمها بشكلٍ منتظم. إنه يقطع الأفرع الميتة أو المريضة، ومن خلال ذلك يعطيها شكلاً متناسقًا. في الزراعة، يؤدي ذلك إلى تحفيز النمو وضمان الحد الأقصى من التعرض للشمس بهدف الإثمار. هكذا، يسمح لنا الله بالتجارب لكي ننمو بشكلٍ أفضل. ورغم أنها تكون مؤلمة، لكنها تحفز فينا الضمير والنضج. أليس الله كأب يؤدب أولاده؟

"يَا ابْنِي، لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ وَلاَ تَكْرَهْ تَوْبِيخَهُ." (أمثال ٣: ١١)

إن تقليم الشجرة لا يُعَد إذًا دينونة لها. لو قام البستاني بتقليم فروعها، فذلك ليس بهدف معاقبتها، بل هو امتياز وعلامة اهتمام بهدف أن تنمو

أكثر. إن إهمال التقليم هو علامة عدم اهتمام وفقدان الثقة في قدرتها على النمو وتدفق الحياة فيها. عندها تُهمَل الشجرة، كما يُذكّرنا بذلك النص الوارد في سفر إشعياء.

"فَالآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي: أَنْزِعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ. وَأَجْعَلُهُ خَرَابًا لاَ يُقْضَبُ وَلاَ يُنْقَبُ، فَيَطْلَعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ. وَأُوصِي الْغَيْمَ أَنْ لاَ يُمْطِرَ عَلَيْهِ مَطَرًا. إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ، وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا. فَانْتَظَرَ حَقًّا فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ، وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ." (إشعياء ٥: ٥-٧)

إن أجمل النصوص التي تتكلم عن التقليم هو ما يقوله لنا يسوع عن الكرمة والكرَّام. بما أني أعيش في بلدٍ تكثر فيه زراعة الكروم، لا أملك إلا أن ألاحظ أن التقليم له دور أساسي في تلك الزراعة. لكي نحصل على عنب غني عالي في نسبة السكر، فإننا لا نُبقي إلا على فرعيْن مكشوفيْن. يتم قطع باقي الفروع، وهكذا نحصل على النبيذ عالي الجودة.

بالنسبة ليسوع، فالعلاقة بين الغصن والكرمة هي علاقة قوية، ينبغي أن يكون للمؤمن علاقة مع الرب على غرارها، بما في ذلك عمليات التقليم المتعددة التي لابد له أن يجتاز فيها لو أراد أن يكون مثمرًا. من هذه العلاقة تنبع الثمار والفرح وشركة البركات الروحية.

"أَنَا الْكَرْمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَأَبِي الْكَرَّامُ. كُلُّ غُصْنٍ فِيَّ لاَ يَأْتِي بِثَمَرٍ يَنْزِعُهُ، وَكُلُّ مَا يَأْتِي بِثَمَرٍ يُنَقِّيهِ لِيَأْتِيَ بِثَمَرٍ أَكْثَرَ. أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ الْكَلاَمِ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ. اثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي الْكَرْمَةِ، كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضًا إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ." (يوحنا ١٥: ١-٤)

فضائل الموت

يتحاشى معظم الناس عمليات التقليم لأنها تُذكِّرهم بالموت. فإن قبول التقليم معناه قبول فقدان جزء من الذات أو الموت عن الذات. إن الموت يخيف الناس لأنه يحمل لهم الخسارة دون إظهار أية مكاسب. لكن الموت مع المسيح يكون موتًا خلاصيًا. لقد نلنا الخلاص بموته عنا. فبدون الموت لا قيامة له. وبدون قيامته باطل إيماننا كما يُذكِّرنا بذلك بولس في ***(١ كورنثوس ١٥).***

كمؤمنين، يتعين علينا أن نجتاز في فترات تقليم وتجارب يستخدمها الرب لأجل نمونا فيه. عندما نقترب منه خلالها، نكتشف كم هو صالح وطيب كما لم نذقه من قبل. يُعبِّر بطرس عن فترات التقليم بهذه التعبيرات:

"كَمَا كَانَتْ سَارَةُ تُطِيعُ إِبْرَاهِيمَ دَاعِيَةً إِيَّاهُ «سَيِّدَهَا». الَّتِي صِرْتُنَّ أَوْلاَدَهَا، صَانِعَاتٍ خَيْرًا، وَغَيْرَ خَائِفَاتٍ خَوْفًا الْبَتَّةَ."

(١ بطرس ٣: ٦)

يتكلم يسوع مع نيقوديموس الذي أتاه ليلاً عن فضائل الموت والولادة الجديدة. في الحقيقة، لكي نفهم مشيئة الله ينبغي أن نرفض المعرفة البشرية لأنها تعتمد بشكل كبير إدراك البُعد الروحي.

إن الله يخاطب فينا قلوبنا قبل عقولنا. لهذا يصعب علينا أن ندرك كيف أن الموت هو ليس أن يوضع الإنسان في قبره، بل أن يغلق قلبه على الحياة الحقيقية في المسيح. كما أن الحياة الأبدية لا تبدأ فقط بعد الموت الجسدي، بل في اللحظة ذاتها التي يقرر فيها أن يتبع المسيح ***(يوحنا ١٧: ٣).***

"أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ.» لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ، وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللهِ الْوَحِيدِ." (يوحنا ٣: ٣، ١٦-١٨)

يستخدم يسوع كذلك مثَل الحبة، التي لابد لها أن تقع في الأرض وتموت إن كانت تريد أن تثمر. هنا فقط تستطيع أن تجد الرطوبة القادرة على كسر قشرتها، وتكوين جذور لها، وجعلها تصبح نباتًا كما كان مُقدَّرًا لها أن تكون.

بمعنى آخر، إنها تموت لكي تعود للحياة في صورة جديدة. كما يموت البشر عن أنفسهم ليدخلوا في بُعد روحي جديد.

"اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي، وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضًا يَكُونُ خَادِمِي. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآبُ." (يوحنا ١٢: ٢٤-٢٦)

كان بولس مستعدًا أن يموت من أجل ما يؤمن به، تشبهًا بسيده. لقد طبَّق كلام المسيح على نفسه: ليس العبد أفضل من سيده ***(متى ١٠: ٢٤)***. فلم يأتِ وقت قط جعل فيه خدمته يحددها الخوف من الناس. كان يعلم الأخطار المحدقة به. لكنه لم يسعَ للاستشهاد كذلك، طالما كان لديه ما يبقيه على قيد الحياة، فإنه يحيا بعمق. الله وحده يعلم متى تكون ساعته.

إن الحميمية التي بناها في علاقته بالرب، قد جعلته مع ذلك لا يفكر إلا في شيء واحد، أن ينطلق ليكون مع المسيح في أسرع وقت ممكن. إنه يتطلع للموت لكي يكون دائمًا مع الرب، مثلما يشتهي الحبيب أن يكون مع حبيبته حتى ولو كان من خلال الموت.

"حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لاَ أُخْزَى فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، كَذلِكَ الآنَ، يَتَعَظَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سَوَاءٌ كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ." (فيلبي ١ : ٢٠)

حين يتحدث بولس عن الموت، ألا يتضمن ما قاله كل الميتات الشبيهة بتقليم الشجرة، التي نجتاز فيها ونحن هنا على الأرض؟ إنه يقول أنه يريد أن يشارك الرب آلامه وموته حتى يكون مشابهًا له.

"وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ. لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ، لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ."
(فيلبي ٣ : ٩-١١)

أستطيع القول من خلال خبرتي الشخصية أن كل تقليم تعرَّضتُ له قد أفادني بقدر ما جعلني أربح المسيح من خلال اللحظات الصعبة التي عشتها! لقد عملَتْ على بناء شخصيتي ومكَّنتني من أن أذوق صلاح الله ورِقَّته، إنها ثمار شجرة الحياة!

الموت عن التطلعات

تكلمنا فيما سبق عن أبعاد الحب وقبول الذات، وعن الفكر الإيجابي والقدرة على التأقلم مع كافة الظروف، وعن فضائل ومزايا التقليم

والموت. إن هذه كلها موضوعات صعبة تحتاج إلى سنواتٍ من التأمل وحياة الإيمان. لكنها عندما تُزرَع فينا وتعطي أول براعمها، تصبح قوية وغنية جدًا بشكل عير اعتيادي. لكي ندرك هذه الحقائق بعمق، فلابد من الموت عن كافة التطلعات الخاطئة الكاذبة.

هذا الموت معناه أن نتخلى عن أحلام القوة والسُلطة وأن يكون لنا ثبات القلب في مواجهة الأمور السيئة، كما تقول الحكمة التالية: أن أقبل أنني لن أكون قط الشخص الخالي من العيوب الذي أتمناه، متحدًا بامرأة واحدة ليست هي أيضًا كاملة بالمرة، وأن أرضى بالإمكانات المادية المتاحة بين يدي، وأن تكون حياتي الخاصة والعملية تحتزن لي دائمًا ظروفًا صعبة يتعين عليَّ اجتيازها.

كما سبق وذكرت، فقد تعيَّن عليَّ أن أموت عن المراكز الجيدة التي كان عليَّ أن أتركها من يوم وآخر. غير أن أقسى تجاربي كانت موت شريكة حياتي، قرب نهاية عام ٢٠١٠، بعد ٢٢ عامًا من الزواج.

كان هذا أمرًا شديد القسوة عليَّ ولم يكن قبوله سهلاً بالمرة: كأب لمراهقين وكزوج لم أعرف في حياتي سوى امرأة واحدة، ولكن على نحوٍ خاص كإنسان دائم البحث عن القبول والحب. إنني مقتنع أنه بدون الإيمان كان تقبُّل هذا الفراق ليكون أصعب كثيرًا في التغلب عليه.

كيف يمكن احتمال ألم فراق إنسان عشت معه أكثر من نصف حياتي، وقمنا معًا بمشروعات وخطط، وسافرنا معًا وبنيْنا شخصياتنا كل واحد منا بالنسبة للآخر؟ أين الله في هذا الأمر؟ إن كانت نهاية عام ٢٠١٠ صعبة في تجاوزها على نحوٍ خاص، بعد الفراغ الذي حدث ولم يكن منه بُد، غير أن الله قد أمدَّني مع ذلك بقوة داخلية لم تدَعني أستسلم أو أنطوي على ذاتي، بل على النقيض، أن أنهض وأنطلق للتعرف على شخصيات جديدة.

إن فقدان شخص عزيز، وكذلك أن يجد الإنسان نفسه مُجبَرًا على ترك حالة أو فكرة عزيزة على القلب، يُحدِث في القلب حالة من الحِداد، بل حالة من المرارة. إن خسارتنا لجزء من أنفسنا أمر مؤلم دائمًا بشكل لا يمكن تفاديه. كما أن رفض ذلك لا يغير من الأمر شيئًا. بل بالعكس، فإن هذا الإنكار يضع ضمادة على جرح دون أن نعالجه. ومنذ ذلك الحين يستمر الجرح في إيلامنا وفي أن يتقيح حتى يصل إلى حالة الغرغرينا. أما الله، فيريد أن يواسينا وأن يشفي جراحنا.

لقد حلَّلت مدام إليزابيث كوبلر- روث[٢١]، وهي عالِمة متخصصة في عملية الحِداد والحزن، عددًا كبيرًا من حالات الحِداد. اكتشفت أن غالبية الناس يمرون بخمس مراحل رئيسية ترتيبها واحد مع الجميع بشكلٍ عام:

(١) الإنكار أو الرفض.
(٢) الغضب وعدم استيعاب أمر الخسارة.
(٣) البحث عمَّن يتحمل سبب الخسارة.
(٤) الاكتئاب المميز بحزن شديد وألم ثقيل لمدة شهور عدة. وأخيرًا:
(٥) التقبُّل، وهو يفتح صفحة جديدة في الحياة بآمالٍ جديدة.

إن عملية الحِداد هذه، بشكلٍ عام، تحدث بعد خسارة أو موت أحدهم بشكلٍ مفاجئ. لكن من الممكن بنفس القدر أن تحدث في اللحظة التي يجد الإنسان نفسه في موقف لا مخرج منه.

في ظروفي الخاصة من موت وطلاق، فقد مررتُ بنفس عملية الحِداد المذكورة، والتي لا مناص منها. لكن بفضل الله الذي ساعدني على تخطي هذه التجربة وشفى جروحي، والذي حوَّل أخيرًا حزني إلى فرح، فقد خرجتُ منها جميعًا أقوى مما سبق.

[٢١] إليزابيث كوبلر- روث، اللحظات الأخيرة للحياة، ١٩٦٩، ترجمة ١٩٨٧.

إن الرب لم يتخلَّ عني لحظة واحدة ولم يدعني أسقط. ولا أدانني أبدًا فيما حدث بسببي وبسبب أخطائي وسوء تقديري، لقد عبَّر لي ببساطة عن حبه. إن الله بهذا المعنى يستخدم الظروف بهدف أن ينمينا وأن يقودنا.

إن معنى المشي، هو أن نضع قدمًا أمام الأخرى، هي قبول أن نكون دائمًا في حالة عدم اتزان.

إن السلوك بالإيمان، هو أن نقوم بدفع بدَّالات العجلة؛ وحين نتوقف عن ذلك، نسقط.

الجزء الخامس: العصارة

"مَغْرُوسِينَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ، فِي دِيَارِ إِلهِنَا يُزْهِرُونَ. أَيْضًا يُثْمِرُونَ فِي الشَّيْبَةِ. يَكُونُونَ دِسَامًا وَخُضْرًا، لِيُخْبِرُوا بِأَنَّ الرَّبَّ مُسْتَقِيمٌ. صَخْرَتِي هُوَ وَلاَ ظُلْمَ فِيهِ." (مزمور ٩٢: ١٣-١٥)

لم يفُت كُتَّاب الأسفار أن العصارة تلعب دورًا مهمًا حتى تنمو الشجرة وتصير مثمرة. إنها تنقل الحياة المستمدة من التربة من خلال الجذور وتنقلها من خلال مجموعة الأغصان حتى أطراف الشجرة. إنها تؤدي نفس دور الدم في عروقنا والذي يجمع الأكسچين للخلايا المحتاجة إليه.

"هُوَ رَطْبٌ تُجَاهَ الشَّمْسِ وَعَلَى جَنَّتِهِ تَنْبُتُ خَرَاعِيبُهُ." (أيوب ٨: ١٦)

العصارة هي رمز لديناميكية الحياة. إنها تُولِّد فيضًا غير منقطع من المغذيات والمعلومات. كلما كانت قوية، كلما كانت صحة الشجرة أفضل، فحينما تتلاشى تموت الشجرة. هكذا الحال بالنسبة لحياتنا الداخلية التي تتغذى على الأفكار والأحاسيس والمشاعر.

الحياة الداخلية

"فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ." (رومية ١٢: ١)

يشعر الكثيرون، وخصوصًا الرجال، بصعوبة في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم. لقد توجب عليَّ أن أتعلم، وأنا بطبيعتي إنسان عقلاني وتحليلي، إلى الاستماع إلى لغتي الداخلية. إنه يعمل كمؤشر على حالتي النفسية، على مزاجي، وعلى حاجاتي الجسدية (مثل

الأمراض، الحركة، والراحة)، أو على رغباتي الأكثر حميمية. بفضل أني أنظر بمنتهى الجدية إلى حواري الداخلي هذا، أستطيع أن أحمي نفسي وكياني كله من أوجاعٍ كثيرة. كذلك يستخدم الله هذه القناة المميزة ليتكلم إلى قلبي.

إن الإصغاء لهذا الحوار الداخلي هو الخطوة الأولى نحو التعبير ومشاركة المكتشفات الشخصية. إن تعلم مشاركة أفراحنا وآلامنا هو أمر ضروري لنا نحن البشر المصنوعين من نفس وجسد. إن كان الله قد ميَّزنا بهذه الصفة، فذلك لأنه قد شاركنا في طبيعته الخاصة. إنه يحس بالألم، وليس لا مُباليًا تجاه الوجع والعذاب.

في سن السادسة عشرة، قمتُ بتجربةٍ مميزة. إذ قررت مع صديق لي أن نذهب في خلوة روحية في كوخ على قمة جبل. اعتقدنا أننا سنرى الربيع هناك، لكن بدلاً من ذلك وجدنا الضباب والثلج في أوان عيد الفصح. حملنا أمتعتنا على ظهورنا وأحذية التزلج في أقدامنا واعتقدنا أن الطريق سيستغرق ساعتيْن. لكننا ضللنا الطريق، غير قادرين على تمييز الطريق في تلك البيئة الثلجية.

بعد جهد ومسيرة ست ساعات، كنا لا زلنا عاجزين عن إيجاد الطريق الصحيح وكان النهار يميل والضباب والبرد ينزلان علينا. إذ خشينا أن نمضي ليلتنا في العراء وإذ استحال علينا إيجاد الطريق، فقد صرخنا إلى الله ببؤسنا وعذابنا. ما كدنا نفعل ذلك، حتى ظهر بِناء على بُعد عشرين مترًا منا.

كانت حظيرة وقد تُرِك بابها غير موصدًا بالمفتاح، مما سمح لنا بالدخول والنوم على الحطب، وقد احتمينا في حقائب النوم. في الغد، عندما أشرقت الشمس، تمكننا من متابعة طريقنا وإيجاد الكوخ وتمضية

عدة أيام في حضور الرب. بفضل هذه التجربة التي كانت صادمة بالنسبة لكلينا، واستجابة الله لصراخنا إليه، فقد تقوَّت أرواحنا واقتربَت إلى الله الساهر علينا أكثر وأكثر. إننا لم نلمس يده تعمل في حياتنا فقط، بل إنه في ذاك الكوخ، قد لمس أيضًا بعمق أحاسيسنا وفتح أرواحنا على حضوره. عندما دعوناه، اقترب إلينا واستجاب لندائنا وتكلم على قلوبنا.

إن الإيمان ليس مساويًا لتراكمٍ من المعرفة النظرية أو قائمة من القواعد الأخلاقية. الإيمان يرتكز على علاقة حب متبادل وتغيير وتحوُّل عميق لما نتطلع إليه. يتكلم بولس عن "الذهن المتجدد" الذي يُمكِّن صاحبه من تقديم ذبيحة ذات رائحة طيبة وعبادة روحية. إنه يذكر كذلك فكرة الوعي الذي يعمل الله من خلاله ليجعل البشر حساسين لوجوده.[٢٢]

إن الله يستخدم أحاسيسنا ليتكلم إلينا. لقد منحنا ضميرًا وعقلاً، لو استُخدِما بشكلٍ سليم، يُمكِّناننا من معرفة مشيئته والتوجه بسرعة إلى الأمور الجوهرية عندما يتوجب علينا اتخاذ قرار ما. إن الصلاة وحُسن الإصغاء، إن وُضِعا في خدمة الإيمان، هما الوسيلتيْن الناجحتيْن جدًا في توجيه أقوالنا وأفعالنا. لكننا كثيرًا ما نتجاهل ذلك الصوت الداخلي، بسبب ضجيج حياتنا اليومية.

عندما أتأمل مسيرتي، أدرك أنه من المحتمل أنني ربما توقفت بشكلٍ مفاجئ بسبب عدم حساسيتي لكل الإشارات رفيعة المستوى التي أعطاني الله إياها. ربما في أوقاتنا الحميمية معًا يكون قد تكلم إليَّ بهمسات خفيفة رقيقة، في حين كنت أنا أتوقع أمورًا أكثر تحديدًا عبر

[٢٢] اقرأ كذلك كتاب دون ريتشاردسون الممتاز، الأبدية في قلوبهم، چيم، ١٩٨٤.

علامات واضحة وعلنية؟ في الأعوام القليلة الماضية، لفت الكثيرون نظري إلى ما أملكه من قدرة على السيطرة على موقف أو محاثة ما. لكن ذلك لم يُغنيني قط عن الاستماع الروحي لروح الله. لقد توجَّب عليَّ كذلك أن أقبل أنه ليس من الضروري أن أعسُر بشكلٍ علني عما قد يكون الله قد أعلنه لي، خشيةً أن يؤدي ذلك إلى توترات أو سوء فهم. إن اندفاعي في الماضي، كثيرًا ما سبَّب لي مضايقات كثيرة.

لكن الله قادر أن ينذرنا وأن يقودنا فيما نتخذه من قرارات. لقد استطعتُ خلال عملي كمدير أن أميز أمورًا سيئة بفضل الإصغاء للصوت الداخلي ولمشاعري. حديثًا، قادني الله في تلك الأجواء الاحترافية، إلى وضع إصبعي على موقفٍ معقد يمثل مشكلة، قادني وحذرني منه روح الله. لكن لسوء الحظ كان إصلاح الأمر ماديًا أعقد مما كنا نظن، إذ كنا في موقفٍ من ممارسات محل شك ونظامٍ غير قانوني قد دام لأمدٍ طويل.

الصلاة

يا رب، أعطني السلام الذي به أقبل ما لا أستطيع تغييره، وشجاعة تغيير ما أستطيع تغييره، والحكمة في معرفة الفرق.[٢٣]

إن علاقتنا بالله لها نفس عنوان علاقتنا العاطفية مع الآخر. إنها ترتكز بشكلٍ خاص على ممارسة العبادة والتسبيح والصلاة. بدأ يسوع خدمته بالصوم والصلاة مدة أربعين سنة. كان يمضي منفردًا إلى موضع خلاء ليقضي أوقاتًا حميمية مع أبيه السماوي. هكذا، استطاع أن يسدد حاجات الجموع الجائعة والتي كانت تضغط عليه بأمراضها

[٢٣] صلاة من أجل السلام، نص من إعداد اللاهوتي الأمريكي رينهولد نيبور (١٨٩٢-١٩٧١).

وهمومها. كان يستمد من الصلاة قوته وثقته في مواجهة العداوات والمقاومة.

إن الصلاة ليست فعلاً طقسيًا. يفضل البعض استخدام النصوص الكتابية أو الليتورچيات. لكن التعبير التلقائي لما يشغل القلب والفكر يُسهّل من وجهة نظري الدخول في حوارٍ مع الله.

إن الصلاة هي تعبير من القلب وإلى القلب، هي تبادل لحوارٍ منطوق ومسموع وكذلك لحوارٍ داخلي. مثلها مثل المزامير، فإن الصلاة هي مشاركة الهموم اليومية من كل نوع، سواء أكانت إيجابية أو سلبية، مع الله. قد تتكون الصلاة من كلمات عرفان أو إيمان أو طلبات أو سؤال مغفرة أو تشفع للآخرين أو للذات. إن الصلاة هي وسيلة اتصالنا بالله من خلال الروح.

الصلاة حوار بين اثنين، وليست حوارًا من طرف واحد. عندما ندخل في اتصال مع الآب السماوي والمسيح، فإننا نخلق اتصالاً شبيهًا بالاتصال عبر الهاتف. كثيرًا ما نبدأ نحن الاتصال، لكن يحدث بنفس القدر أن يسعى الله إلى إفهامنا شيئًا هامًا، لكننا أحيانًا ما ندَّعي أننا لم نسمع أو نغلق الخط متجنبين أن نقيم اتصالاً مع السماء.

أحب أن أدخل في حوار قلبي مع مخلصي في أثناء ذهابي للعمل، غير مكتفيًا بلحظات الصلاة الرسمية، حيث أسلمه يومي وانشغالاتي وهمومي. هكذا، أصير قادرًا على مواجهة مسئوليات اليوم، عالِمًا أنني لا أحملها بمفردي، لأنه يقف بجانبي. فمهما حدث، أثق أنني بين يديْه الصالحتيْن التي تحميني. إن هذه العلاقة الإلهية تحفز ردود فعلي وتثري نموي. إنها تقيم رباطًا بيني وبين الله وتجعل أيامي تنساب في سهولةٍ.

"وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ لَحْمِكُمْ وَأُعْطِيكُمْ قَلْبَ لَحْمٍ." (حزقيال ٣٦: ٢٦)

الروح القدس

"لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا، نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ. لأَنَّهُ إِنْ عِشْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ فَسَتَمُوتُونَ، وَلكِنْ إِنْ كُنْتُمْ بِالرُّوحِ تُمِيتُونَ أَعْمَالَ الْجَسَدِ فَسَتَحْيَوْنَ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَنْقَادُونَ بِرُوحِ اللهِ، فَأُولئِكَ هُمْ أَبْنَاءُ اللهِ. إِذْ لَمْ تَأْخُذُوا رُوحَ الْعُبُودِيَّةِ أَيْضًا لِلْخَوْفِ، بَلْ أَخَذْتُمْ رُوحَ التَّبَنِّي الَّذِي بِهِ نَصْرُخُ: «يَا أَبَا الآبُ.» اَلرُّوحُ نَفْسُهُ أَيْضًا يَشْهَدُ لأَرْوَاحِنَا أَنَّنَا أَوْلاَدُ اللهِ." (رومية ٨: ٤، ١٣-١٦)

أحد أساسيات الحياة المسيحية، هو الروح القدس. إن قبول الانقياد به معناه انسياب عصارة خاصة تحمل لنا الراحة والتجديد والحيوية. إنها تحمل لنا إرشادات ترتيب روحي ينبغي أن نفهمها ونتمثلها. الروح القدس ينقلنا من الظلمات إلى النور جاعلاً منا أولادًا لله، أي وارثين لملكوته. يختبر المؤمن، وقد أصبح ابنًا لله بإيمانه بالمسيح، تغييرًا وتحولاً داخليْن يفتحان له مصدرًا جديدًا من حياة الرجاء. إنه يبدأ في رؤية الواقع بشكلٍ مختلف. إن رؤيته للأمور الحياتية والمستقبلية تتبدل تمامًا. كما تتغير نظرته للناس المحيطين به.

"لأَنَّ بِهِ لَنَا كِلَيْنَا قُدُومًا فِي رُوحٍ وَاحِدٍ إِلَى الآبِ." (أفسس ٢: ١٨)

إن روح الله يخلق رباطًا داخلنا عندما يُدخلنا في عائلة جديدة، إنه يكسر فينا إحساسنا بانتمائنا القِبلي وأفكارنا العنصرية ويقيم مجتمعًا جديدًا. إنه يجعلنا ننفتح على الآخرين ويحفز حياة الشركة ويعطي دوافع جديدة. عندما يخاطب الروح القدس أرواحنا، فإنه يوسع نظرتنا

ومفاهيمنا عن العالم المحيط بنا. بفضل تدخله، تنقلب طريقة تفكيرنا وعالمنا رأسًا على عقب، ونبدأ نرى في كل مؤمن أخًا وفي كل مؤمنة أختًا في نفس العائلة. هكذا يخلق مساحة من الثقة والحرية.

"وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ."
(٢ كورنثوس ٣: ١٧)

يشرح يسوع للرسل في إنجيل يوحنا أن رحيله مفيد لهم، إذ سيرسل لهم الروح القدس، وسيكون مصدر قوة مضاعفة لهم. إن المعاني التي تغطيها كلمة "باراكليتوس" واسعة: إنه المنقذ، الشفيع من أجلنا، المحامي والمدافع، والمدرب. هكذا، فإن المؤمن ليس وحيدًا مع همومه، إنه محاط بقوة جديدة تحرسه في رباط وتناغم مع المسيح.

"وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ."
(يوحنا ١٤: ١٦)

إن كنا كمؤمنين نظل محتفظين بإنسانيتنا، مأخوذين من تراب الأرض ومتجذرين في مجتمعنا، فإن الروح القدس أيضًا الساكن فينا يصنع منا كائنات روحية. وكما يجد مَن يقع في الحب صعوبة في التعبير عن عالمه الجديد ومشاعره، كذلك المؤمن، وقد امتلكه الروح القدس، يعيد اكتشاف نفسه من جديد. إنه يبدأ يرى الحياة بنظرة جديدة هي نظرة الروح القدس فيه. لقد تذوق رحيق الأبدية، وما عاد من العالم كما كان. هكذا، فإن التحدي الحقيقي ليس أن يهرب من النشاطات الدنيوية، بل أن يكون محروسًا من الشر.

"أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلاَمَكَ، وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ." (يوحنا ١٧: ١٤)

إن كلمة "الروح" تعني "نفخة"، أو "رُوَاه" بالعبرية، أو "بنوما" باليونانية. إنها تعني قوة تعمل بشكلٍ غير ظاهر للعين المجردة، لكن نتائج أو ثمار هذا العمل هي التي تكون ظاهرة، مثل التيار الكهربي أو الريح. في حياة الإيمان، يتعلق الأمر أن يجد الإنسان حليفًا ومصدر قوة، مثل الريح التي تدفع الشراع. إن الإنسان لا يقدر أن يتحكم في الريح، لكنه يستطيع أن يستفيد منها في توجيه شراع سفينته. بنفس القدر، فإن روح الله هو قوة شفاء، تواصل، وإلهام.

أحد النصوص الملهمة جدًا هو نص النبي حزقيال الذي دعاه الله للتنبؤ على العظام اليابسة ***(حزقيال ٣٧)***. يقوده الروح إلى البقعة المليئة بالجثث. ثم يأمره بالتنبؤ على تلك العظام لتحيا. كان عليه أن يستدعي نسمة الحياة. وكانت الرسالة هنا هي عودة الروح في وسط شعب إسرائيل من خلال تلك القيامة والرجاء الممنوح له. في هذا النص تتجاوز معانٍ وإشارات للروح القدس: الروح النبوية، الانتقال المكاني، نفخة الحياة، وبعث الأمل والرجاء.

"فَقَالَ لِي: «تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلُمَّ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيَاحِ الأَرْبَعِ وَهُبَّ عَلَى هؤُلاَءِ الْقَتْلَى لِيَحْيَوْا.»" (حزقيال ٣٧: ٩)

الروح النبوية

"لأَنَّهُ هُوَذَا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ، عِنْدَمَا أَرُدُّ سَبْيَ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ، أَجْمَعُ كُلَّ الأُمَمِ وَأُنَزِّلُهُمْ إِلَى وَادِي يَهُوشَافَاطَ، وَأُحَاكِمُهُمْ هُنَاكَ عَلَى شَعْبِي وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ بَدَّدُوهُمْ بَيْنَ الأُمَمِ وَقَسَمُوا أَرْضِي، وَأَلْقَوْا قُرْعَةً عَلَى شَعْبِي، وَأَعْطَوْا الصَّبِيَّ بِزَانِيَةٍ، وَبَاعُوا الْبِنْتَ بِخَمْرٍ لِيَشْرَبُوا." (يوئيل ٣: ١-٣)

إن الروح القدس هو بآنٍ نفخة وكذلك قوة محررة. إنه يعمل بشكلٍ خاص كقناة موصلة بين الله والناس. حين يتحرك، ينقل المعرفة الروحية. إنه يقربنا من الله ومن نبعه المحيي. إن هذا الاتصال مع العالم الروحي هام على نحوٍ خاص لكي نتمكن من معرفة مشيئة الله من نحونا ورسالة الحب والشفاء التي يعهد بها إلينا. لذا، فإن كل مؤمن مسيحي هو مدعو لأن ينمي في داخله روحًا نبوية.

يتكون الإنسان من ٧٠% من الماء، حتى لو صعُب علينا تقبُّل هذه الحقيقة. ينطبق الأمر نفسه على الشجرة التي لو قُطِعت، تجِف، إذ تفقد عصارتها وتفقد جزءًا كبيرًا من وزنها. ينطبق الأمر نفسه أيضًا على المؤمن. حين ينمو لديه حسه الروحي، يكون كإسفنجة ممتلئة بالروح القدس. ينساب الروح في عروقه ويجعله على اتصال بالبُعد الأبدي. من أجل هذا الأمر، ينبغي أن نأخذ الوقت اللازم لسماع ما يريد الرب أن ينقله إلينا أو ما يدعونا لمشاركته مع الآخرين.

"إِنَّ السَّيِّدَ الرَّبَّ لاَ يَصْنَعُ أَمْرًا إِلاَّ وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الأَنْبِيَاءِ."
(عاموس ٣: ٧)

كل مؤمن هو في المسيح مرتبط بالعالم الروحي قادرًا على إدراك ذلك. هناك هبة نبوية ممنوحة بشكلٍ عام لجميع المؤمنين. تميز النصوص الكتابية بين المواهب النبوية المعطاة لبعض المؤمنين المُفرَزين للمسيح بشكلٍ محدد؛ فلهؤلاء دعوة خاصة لأن يتكلموا بشكلٍ علني وعام باسم الله.

كان إرميا واحدًا من هؤلاء. لقد تلقى توجيهات غاية في الوضوح من الله. لكن كانت رسالته قوية وصعبة القبول حتى أنه بدأ يكون له أعداء. بعد ثلاثين سنة من بداية خدمته، بدأت أقواله عن مجيء قوة

خارجية أجنبية تغزو البلاد، تتحقق وتشهد بالتالي عن صدق دعوته. لكن بعيدًا عن الصورة الرومانسية لنبي باركه الله، يجعل هذا الأمر إرميا نفسه يتعذب بسبب تحقق أقواله على عكس ما كان الجميع يظن. كان في لحظاتٍ كثيرة قريبًا من الارتداد وترك العمل باحثًا أن ينأى بنفسه عن هذا الاندفاع النبوي.

"قَدْ أَقْنَعْتَنِي يَا رَبُّ فَاقْتَنَعْتُ، وَأَلْحَحْتَ عَلَيَّ فَغَلَبْتَ. صِرْتُ لِلضَّحِكِ كُلَّ النَّهَارِ. كُلُّ وَاحِدٍ اسْتَهْزَأَ بِي. لأَنِّي كُلَّمَا تَكَلَّمْتُ صَرَخْتُ. نَادَيْتُ: «ظُلْمٌ وَاغْتِصَابٌ!» لأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ صَارَتْ لِي لِلْعَارِ وَلِلسُّخْرَةِ كُلَّ النَّهَارِ. فَقُلْتُ: «لاَ أَذْكُرُهُ وَلاَ أَنْطِقُ بَعْدُ بِاسْمِهِ.» فَكَانَ فِي قَلْبِي كَنَارٍ مُحْرِقَةٍ مَحْصُورَةٍ فِي عِظَامِي، فَمَلِلْتُ مِنَ الإِمْسَاكِ وَلَمْ أَسْتَطِعْ." (إرميا ٢٠: ٧-٩)

من جانبه، يؤكد الرسول بولس على أهمية ذلك الجانب النبوي. بفضل ذلك الجانب عاش قريبًا من سيده، متلقيًا منه الوحي اللازم لخدمته، وثابتًا أمام المواجهات اليومية التي تعرض لها. إنه يركز أيضًا على الجانب المجتمعي لهذه الروح النبوية، التي تبني الكنيسة وتشجعها وتحفزها على إتمام رسالتها المجتمعية.

"اِتْبَعُوا الْمَحَبَّةَ، وَلكِنْ جِدُّوا لِلْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ، وَبِالأَوْلَى أَنْ تَتَنَبَّأُوا. لأَنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ لاَ يُكَلِّمُ النَّاسَ بَلِ اللهَ، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَعُ، وَلكِنَّهُ بِالرُّوحِ يَتَكَلَّمُ بِأَسْرَارٍ. وَأَمَّا مَنْ يَتَنَبَّأُ، فَيُكَلِّمُ النَّاسَ بِبُنْيَانٍ وَوَعْظٍ وَتَسْلِيَةٍ. مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ يَبْنِي نَفْسَهُ، وَأَمَّا مَنْ يَتَنَبَّأُ فَيَبْنِي الْكَنِيسَةَ." (١ كورنثوس ١٤: ١-٤)

يعِدّ الروح القدس الأرض ويمهدها. إنه يجعل القلوب مستعدة لقبول رسالة الإنجيل، ويجعل المؤمنين يدركون ويتعرفون على عمل الله في

أمور كل يوم وأزماته. إن هذا الأمر من الأهمية بمكانٍ، حتى أننا كثيرًا ما يفوتنا معرفة إرادة الله نحونا رغم مرورنا بالقرب منها.

إننا مُنهَكون ومُشتَّتون بسبب هموم الحياة. لكن عندما ننمي قدرة الإصغاء والاستماع، تصير صلواتنا أكثر ثراءً وأغنى في محتواها. عندها نصبح سفراء مرسلين من الله لمَن حولنا.

"يريد الله أن تكون لنا قلوب حساسة وأقدام قوية. مشكلة الكثيرين بيننا هي أن لهم قلوب قوية جامدة وأقدام حساسة هشة."
(چاكي بولينجر، مرسلة في هونج كونج)

التعرف على جسد المسيح

"مُجْتَهِدِينَ أَنْ تَحْفَظُوا وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ بِرِبَاطِ السَّلاَمِ. جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضًا فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ. رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ." (أفسس ٤: ٣-٦)

لقد اكتشفنا كيف يصنع الروح القدس الربط. إنه يعلن لنا مشيئة الله ويحفز في دواخلنا وعيًا وديناميةً تكريس وثقة، ويجعلنا نرى الآخرين كجزء من نفس العائلة. إنه يوحد الجميع حول مركز واحد مشترك هو المسيح، وهو ما يدعوه بولس بالجسد.

كما يوجد مكان لكل عضو في الجسد المادي، فإن تنوع البشر والمواهب تُولِّد دينامية روحية للجسد الذي هو الكنيسة. كل مؤمن يُغني ويُثري الآخرين بقدراته ومواهبه. إن الله نفسه بكونه الآب والابن والروح القدس يحبذ ويدعو للتواصل.

كما سبق وأثبتنا كيف تتواصل الأشجار من خلال جذورها، فإن الشركة بين المؤمنين هي أساسية لأجل إيمان متوازن. إن هذا الانفتاح على الآخرين يبدأ بالوعي أننا كمسيحيين من انتماءات مختلفة، فإنما نحن أشبه بإخوة وأخوات من نفس العائلة.

"الَّذِي مِنْهُ كُلُّ الْجَسَدِ مُرَكَّبًا مَعًا، وَمُقْتَرِنًا بِمُؤَازَرَةِ كُلِّ مَفْصِلٍ، حَسَبَ عَمَلٍ، عَلَى قِيَاسِ كُلِّ جُزْءٍ، يُحَصِّلُ نُمُوَّ الْجَسَدِ لِبُنْيَانِهِ فِي الْمَحَبَّةِ." (أفسس ٤: ١٦)

بهذا الصدد، أُحب بشكلٍ خاص قصة "سويمي"، التي كانوا يروونها لي في طفولتي. كانت الأسماك الحمراء أو السوداء تحت رحمة المفترسين من كل نوع. لكن عندما كانت هذه الأسماك تتوحد معًا، كانوا قادرين على إخافة كل المفترسين من جميع الأحجام، بل وقادرين على تحديها. هكذا، عندما نتحد معًا حقًا، ندرك القوة الكامنة فينا والتي تجعلنا أقوى.

عندما كنت أدرس شخصية بولس، تشجعتُ بشكلٍ خاص من موقفه، والذي وعلى الرغم من التوتر الاجتماعي – الثقافي والخلفيات الدينية للمسيحيين من يهود وأمم، فإنه قد لعب دورًا أساسيًا حتى يحافظ هؤلاء المؤمنين على الحوار والاحترام المتبادل.

رغم الهجوم الشخصي عليه بشكلٍ متكرر، فإنه قط لا يتنكر لأصوله. بل على العكس فإنه لا يتوقف عن استثمار الوقت وسلطانه الرسولي للحفاظ على الوحدة في قلب جسد المسيح. إنه لا يدع الحساسيات الدينية والتي توجد بين اليهود والأمم والمفاهيم والطرق المختلفة لكل منهما في خدمة الله، مجالاً لأن يدين أحدهما الآخر. إن الوحيد الذي له هذا الحق هو الله ذاته.

"بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ، مِنْ كُلِّ الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ، وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ، مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ." (رؤيا ٧: ٩)

أُحب أن أُذكِّر أنه في السماء سيجتمع جميع المؤمنين حول الله والمسيح معلنين معًا تسابيح سماوية. ذلك مهما كانت انتماءاتهم وطريقة خدمتهم لله على الأرض، فإنهم يتوحدون في حفلٍ يبتهجون فيه ببركات الخلود الموهوب لهم من شجرة الحياة.

"فَمِنْ شَجَرَةِ التِّينِ تَعَلَّمُوا الْمَثَلَ: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقَهَا، تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّيْفَ قَرِيبٌ." (متى ٢٤: ٣٢)

الجزء السادس: الأوراق

غالبًا عندما نتحدث عن شجرةٍ ما، فإننا نفكر في ثمارها. يسوع نفسه يقول أنه من الثمرة تُعرَف الشجرة. في تلك الملاحظة رؤية جمالية، بما أن الأزهار والثمار تعطي للشجرة لونًا. لكني لا أملك أن لا أرى في هذه النظرة نوعًا من النفعية والأنانية بما أننا نحن كبشر نتغذى على تلك الثمار. أما عن الأوراق، فمن الممكن أن تكون جميلة في الخريف. لكن عندما تسقط تصبح عائقًا للحركة يتعين إزالته. لكن في الطبيعة تصبح بمثابة سماء وتلعب دورًا في نمو الشجرة. هكذا، تلعب الأوراق دورًا أكثر أهمية ربما من الثمار ذاتها. إن الأشجار تنتجها من أجل نموها واتزانها الشخصي.

من خلال الأوراق، تدخل الشجرة في علاقة مع بيئتها المحيطة وتتنفس. بفضل الكلوروفيل الموجود في خلاياها، تستخلص الأوراق غاز الكربون من الهواء وتولد تحت آشعة الشمس الأكسچين. هذا هو التمثيل الضوئي. هذه الآليات هامة لصحة الشجرة، لكنها بالقدر نفسه مفيدة للبشر الذين يستمدون حياتهم من الأكسچين الموجود في الهواء. هكذا، يستفيد الجميع من موقف رابح للكل. أما الثمار، فإنها دعم للبذار. إنها تجذب الإنسان والحيوان الذين يحملون البذار وينشرونها هنا وهناك... وهو أسلوب فعال لبقاء واستمرار نوع الشجرة!

إن الخليقة متقنة حقًا! هناك علاقة تبادلية بين مختلف الأنواع النباتية وتفاعلها مع الحيوان والإنسان. من وجهة نظر رمزية، نثبت أن الشجرة، قبل أن تفيد مَن حولها، فهي موجودة بذاتها. إن عليها أن تهتم أولاً بنموها. هكذا الحال بالنسبة لحياتنا: إن كنا ننمو حسنًا، سيفيد من حولنا بنفس القدر.

دواء لشفاء الأمم

"وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ. وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ. وَعَرْشُ اللهِ وَالْخَرُوفِ يَكُونُ فِيهَا، وَعَبِيدُهُ يَخْدِمُونَهُ." (رؤيا ٢٢: ١-٣)

إننا لا نجد في نص سفر التكوين كلاما كثيرًا عن شجرة الحياة. لكننا ندرك أهميتها من مكانها في وسط الجنة، ثم أيضًا من خلال حرمان آدم وحواء منها ومعرفتهما للموت ***(تكوين ٣: ٢٢)***. لكن الأمر يختلف في سفر الرؤيا حيث نجد شجرة الحياة تعطي أوراقًا وثمرًا، وهذان يساهمان في السعادة الكونية بما أنه لم يعُد هناك شر.

كما نجد أن أوراق الشجرة هي لشفاء الأمم أو الناس، بحسب بعض الترجمات. في سفر الرؤيا، نجد بوضوح فكرة شاملة ورؤية كونية. هذه الشجرة لا تخدم شخصًا أو اثنين، بل تُؤمِّن الخلود لأمم بأكملها، أو بالحري لأمم من كل أنحاء العالم.

فكرة أن الأوراق تجلب الشفاء نجدها في سفر النبي حزقيال الذي يربط فيه بين الأوراق والشفاء. الأمر يتعلق بأشجار تنمو بجوار نهر ينبع من بيت الله، كما هو الحال في أورشليم الجديدة في سفر الرؤيا.

لكن المقارنة تنتهي هنا، حيث أن حزقيال في رؤياه يدعو الرب لقياس النهر. لكن للعجب يصبح النهر أكثر عمقًا كلما ابتعد عن الهيكل، حتى أنه يجد نفسه محمولاً بما يصبح شلالاً. كما أننا لا نجد ذِكرًا لشجرة الحياة، بل لأشجار كثيرة على جانبي النهر.

"وَعَلَى النَّهْرِ يَنْبُتُ عَلَى شَاطِئِهِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ كُلُّ شَجَرٍ لِلأَكْلِ، لاَ يَذْبُلُ وَرَقُهُ وَلاَ يَنْقَطِعُ ثَمَرُهُ. كُلَّ شَهْرٍ يُبَكِّرُ لأَنَّ مِيَاهَهُ خَارِجَةٌ مِنَ الْمَقْدِسِ، وَيَكُونُ ثَمَرُهُ لِلأَكْلِ وَوَرَقُهُ لِلدَّوَاءِ." (حزقيال ٤٧: ١٢)

أحب فكرة أن شجرة الحياة تحمل الشفاء. فمن جهة، فالجسد معقد على حد أن يحدث له فشل متكرر. ومن جهة أخرى، فإنه يجدد نفسه ويشفي من خلال آليات طبيعية، حتى دون أن نحس بها. كثيرًا ما ينبهنا صوتًا داخليًا بما يحتاجه الجسد سواء من مواد غذائية أو حركة. إن عدم الاستجابة لهذه الإشارات يهدد أجسادنا.

من جانب آخر، فإننا اليوم لا نموت جراء الشيخوخة، بل بسبب المرض. فلو لم يجد الموت طريقه من خلال المرض، لعاش الإنسان إلى الأبد. هكذا، فإن شجرة الحياة تنقل لنا الشفاء وفكرة الخلود بالتبعية. إن موقفنا مما كان يظنه الناس في زمن المسيح أن الخطية هي سبب المرض، هو أبعد ما يكون عن ذلك، حتى لو أكد الطبيب وجود علاقة بين السلوك السيئ والتبعات الجسدية مثل الأمراض.

الشفاء، علامة حنان الله (مزمور ١٠٣)

(المزمور ١٠٣) هو واحد من أجمل المزامير. إنه يُظهِر مدى حنان الله نحو رعاياه على غرار الأوراق التي تظهر بشكل معجزي كل ربيع، بخضرتها الرقيقة التي تلطف من شكل الشجرة وتمنحها جمالاً بعد جفاف الشتاء بفروعه الجافة العارية من الأوراق، فإن الله يُظهِر حبه ورقَّته بمختلف الطرق.

إن عمله يظهر بشكلٍ مباشر على صحة وسلامة مَن يضع ثقته فيه. إن صاحب المزمور يُعبِّر عن ذلك التحول الداخلي ويصنع منه سببًا لتسبيح الله.

"بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ. بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ، وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ. الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ. الَّذِي يَفْدِي مِنَ الْحُفْرَةِ حَيَاتَكِ. الَّذِي يُكَلِّلُكِ بِالرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ. الَّذِي يُشْبِعُ بِالْخَيْرِ عُمْرَكِ، فَيَتَجَدَّدُ مِثْلَ النَّسْرِ شَبَابُكِ." (مزمور ١٠٣: ١-٥)

إن الشفاء وغفران الخطايا هبتان ينالهما الإنسان من خلال الكرم الإلهي. إنهما تعملان بشكل مباشر في الإنسان وتُغيّرا من طبيعته الداخلية ودوافعه. إنهما مرتبطتان ببُعد حياة جديدة تستمر حتى بعد الموت الجسدي. لم تعُد الشيخوخة من الآن فصاعدًا سببًا للتذمر، بما أن الخالق في محبته ورقته، يقدم إحساناته بتجديد العمر والشباب. فترتفع معنويات الإنسان مثل نسر الذي يرى من موقعه المرتفع ٣٦٠° من محيطه، ويستطيع أن يرى العاصفة قادته، فإن الرب يُمكّننا من رؤية ما يُعدَّه. هكذا، يمنحنا القدرة على التسامي فوق المواقف اليومية وقد صارت لنا رؤية بعيدة المدى، لا تنظر إلى الأمور الصغيرة، بل تتجاوز ما يحدث واقعيًا على الأرض في بيئتنا.

"اَلرَّبُّ مُجْرِي الْعَدْلِ وَالْقَضَاءِ لِجَمِيعِ الْمَظْلُومِينَ. عَرَّفَ مُوسَى طُرُقَهُ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَفْعَالَهُ. الرَّبُّ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ. لاَ يُحَاكِمُ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَحْقِدُ إِلَى الدَّهْرِ. لَمْ يَصْنَعْ مَعَنَا حَسَبَ خَطَايَانَا، وَلَمْ يُجَازِنَا حَسَبَ آثَامِنَا. لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا." (مزمور ١٠٣: ٦-١٢)

لله كل الحق في أن يغضب على البشر العُنفاء، الأنانيين، والكذابين. هؤلاء يعتبرون أنفسهم مركز الكون ويختارون أن يتجاهلوا الدينونة العتيدة. مع ذلك، فإن الله مثل الشمس، كريم؛ كما أنه طويل الروح. لكن

أحيانًا تحجبه الغيوم وتجلب لنا الشك والخوف. لكن الله يظل أمينًا. إنه مستعد أن يغفر وأن يمنح فرصةً ثانيةً. لكن لأجل الاستفادة من ذلك ينبغي أن نسلم له الحياة وندعه يعمل.

"كَمَا يَتَرَأَفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ. لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ. الإِنْسَانُ مِثْلُ الْعُشْبِ أَيَّامُهُ. كَزَهَرِ الْحَقْلِ كَذلِكَ يَزْهِرُ. لأَنَّ رِيحًا تَعْبُرُ عَلَيْهِ فَلاَ يَكُونُ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مَوْضِعُهُ بَعْدُ. أَمَّا رَحْمَةُ الرَّبِّ فَإِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ عَلَى خَائِفِيهِ، وَعَدْلُهُ عَلَى بَنِي الْبَنِينَ، لِحَافِظِي عَهْدِهِ وَذَاكِرِي وَصَايَاهُ لِيَعْمَلُوهَا." (مزمور ١٠٣: ١٣-١٨)

يقدم لنا صاحب المزمور الله كأبٍ مُحِبٍ. إنه يُعبّر عن حبه لأطفاله مستعدًا لأجل تعليمهم وتهذيبهم أن يغفر خطاياهم وحماقات الشباب. إن كاتب المزمور ليس غافلاً، إذ يصرّ على وجود فارق بين الخالق وخليقته. إننا لا نقدر أن نتبارى مع الله. إن حياتنا الأرضية خيال وما أجسادنا إلا تراب ونفخة حياة هشة للغاية. لكن في إطار العهد الذي يقيمه الله مع البشر، فإنه يعطينا مسحة ويمد يده إلينا. وعلينا أن نمسك بها.

"اَلرَّبُّ فِي السَّمَاوَاتِ ثَبَّتَ كُرْسِيَّهُ، وَمَمْلَكَتُهُ عَلَى الْكُلِّ تَسُودُ. بَارِكُوا الرَّبَّ يَا مَلاَئِكَتَهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ كَلاَمِهِ. بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ جُنُودِهِ، خُدَّامَهُ الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ. بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، فِي كُلِّ مَوَاضِعِ سُلْطَانِهِ. بَارِكِي يَا نَفْسِيَ الرَّبَّ."
(مزمور ١٠٣: ١٩-٢٢)

لقد اختبر البشر على مدى القرون صلاح الله ورحمته. إن عمله يحرر، قادرًا على تغييرنا داخليًا، فكرًا وعاطفةً وإرادةً وجسدًا أيضًا. إن تدخُّل يد الله الشافية من خلال مجيء يسوع، قد صارت ذات معنى جديدًا وكونيًا.

يسوع الشافي

"وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ." (متى ٤: ٢٣)

يدور جزء كبير من الإنجيل الذي يصف حياة يسوع حول معجزات الشفاء، ولا يمكن إنكار أن جزءًا كبيرًا ممَن كانوا يأتون ليسوع وممَن يتبعونه، كانوا يفعلون ذلك بسبب كونه شافيًا. إنه حقًّا معلم عظيم لا مثيل له، مُظهِرًا صفات استثنائية للتعبير وإظهار مشيئة الله، غير أن العجائب والمعجزات هي الجانب القوي من خدمته. عندما يرسل يسوع الرسل في مهمةٍ ما، فإنه يشجعهم على التمثل به. ينبغي أن يمضوا بلا كيس ولا مزود معتمدين تمامًا على الله. إن أوامره لهم واضحة غاية في الوضوح: ينبغي أن يمضوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ***(متى ١٠: ٦)***، وتبشيرهم بإنجيل اقتراب ملكوت الله منهم وأن يصلُّوا لأجل مرضاهم. هكذا، يدعو يسوع تلاميذه أن يربطوا دومًا بين النبوة والشهادة والأفعال الصحيحة النابعة من ملكوت الله. والصلاة لأجل الشفاء هي أحد أقوى الأمثلة على ذلك.

"وَدَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ، وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَسُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ الشَّيَاطِينِ وَشِفَاءِ أَمْرَاضٍ." (لوقا ٩: ١)
"اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا. أَقِيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ. مَجَّانًا أَخَذْتُمْ، مَجَّانًا أَعْطُوا." (متى ١٠: ٨)

إن طرق التدخل الإلهي لا نهاية لها. لا يوجد مرض يستعصي شفائه على الرب، سواء أكان مرضًا وراثيًا أو عضويًا أو روحيًا أو ناتجًا عن حادث، فكل هذه لا تمنع التدخل الإلهي المعجزي. حتى إن الإنجيل يروي لنا عن عدة حوادث إقامة من الأموات.

ملكوت الله قد اقترب

إن أورشليم الجديدة هي وصف تصويري لملكوت الله. إنها تصف وحدة المؤمنين حول المخلص والله. في حضورهما، لا وجود للعذاب أو المرض أو الموت. لا شيء سوى العبادة والتسبيح في حضور الرب. لقد فتح عمل المسيح ورسالته باب السماء.[٢٤]

إن كل شفاء وكل روح شرير يتم طرده، يقربنا أكثر فأكثر من ملكوت الله. بتدخله المعجزي، يكشف يسوع خصائص ذلك البُعد الروحي الجديد الذي يريد الله أن يدخلنا إليه. أما على الأرض فلسنا سوى مسافرين، نختبر القوة الإلهية، لكنها تظل جزئية ومحدودة ببشريتنا.

"لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ يَشْرَبُ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ." (لوقا ١: ١٥)

إن يسوع يؤكد أنه قد جاء حاملاً لنا بشارة ملكوت الله المفرحة ***(لوقا ٤: ٤٣)***. إنه يكشف النقاب عن حقيقة نبوية. بهذا المعنى، فإن معجزات الشفاء التي مارسها ودعا تلاميذه إلى ممارستها كذلك، ليست إلا حدود أبعاد لحياة جديدة مزدهرة في محضر الله.

إن خدمة يسوع تعطينا فقط عربونًا لما ستكون عليه الحياة الأبدية. عندما ارتفع وقع الرسل في حالة حيرة وعدم فهم، وقبل أن يحل عليهم الروح القدس المحرر، لم يكونوا مدركين للحقيقة التي كانت تفوق عقولهم، حتى إنهم شعروا أنهم قد تُخلي عنهم على الأرض. لكن بصلواتهم لأجل الرضا، فإنهم كانوا يتبعون عمل يسوع، متذكرين أن لا شيء يقدر أن يفصلهم عن محبة المسيح ***(رومية ٨: ٣٨)***.

[٢٤] راجع أيضًا رؤيا ٤: ١.

كما سبق وذكرنا، فإن إرادة الله لنا هي أن يحررنا. إنه إن أخرج شعبه من العبودية في مصر، فليس لكي يلقي بهم في عبودية أخرى جديدة. الله يريدنا أن نختبر الملء والشبع والسعادة. لأجل ذلك يسعى لتحريرنا من كل ربط وكل عبودية. إن المرض، مثله مثل الخطية، يمكن أن يمنعنا من حرية التلاقي معه، لأجل ذلك هو يرغب في أن يشفينا ويصلحنا.

هكذا، فإن الشفاء الذي تجلبه الأوراق لنا ليس إلا ذِكرًا سريًا، لكنه أيضًا فيض من حقيقة روحية أراد الله بها أن يدعونا للإيمان بالشفاء وتطبيق الترتيب المرسلي بالتبشير بالإنجيل وممارسة علامات الملكوت.

"لكِنِ اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ." (متى ٦ : ٣٣)

البُعد الشامل للشفاء

عندما نتكلم عن الشفاء، يتبادر لذهننا المرض الذي يتعلق بالجسد. لكن في الكتاب المقدس لا يوجد فصل بين الروح والنفس والجسد. فعند العقلية العبرية يتعلق الأمر بوحدة غير منفصلة. عندما يصلي يسوع من أجل الشفاء، فإنه يغفر الخطايا أيضًا والعكس صحيح، كما في حالة شفاء مشلول بيت حسدا ***(يوحنا ٥ : ٨،١٤)***، أو كما في متى.

"وَإِذَا مَفْلُوجٌ يُقَدِّمُونَهُ إِلَيْهِ مَطْرُوحًا عَلَى فِرَاشٍ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ.» وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ!» فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ

سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا.» حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!»" (متى ٩: ٢-٦)

إن يسوع لا يخاطب المرض، لكنه يأمر المريض، وبهذا يضعه أمام مسئوليته قبل كل شيء. كان هناك اعتقاد أن الشلل أو المرض مصدرهما خطية الإنسان أو أهله ***(يوحنا ٩: ٢)***.

وهكذا، كان التقليد يضع ثقلاً معنويًا على المريض، مما كان يزيد من أحزانه ومحنته بدلاً من مساعدته والتخفيف عنه. لكن يسوع على العكس من ذلك كان يعتبر لفردية الإنسان مهتمًا بمصيره ومستأصلاً الشر من جذوره معطيًا إياه أساسًا جديدًا جسديًا وروحيًا واجتماعيًا.

بما أن العلاج الطبي كان نادرًا في ذلك الزمان، فقد كان أصحاب الأمراض أو الإعاقات يُهمَّشون. لم يكن من حق الأبرص أن يبقى في القرية، وكان الأعمى يُجبَر على أن يستعطي على قارعة الطريق، ومَن لم يكن من المعاقين ذو أصدقاء، كان يحيا في عزلة ووحدة. عندما كان يسوع يتدخل في مواقف كهذه، فقد كان يضع الفرد في بؤرة الاهتمام، وحين كان يشفيه، كان يرسله ليحيا وسط مجتمعه وذويه.

في الكثير من النصوص، يقوم يسوع بطرد الأرواح الشريرة. فكنا نرى ضحايا هذا الأمر كأنه مُسيطَر عليهم من قِبَل قوى شريرة تجعل أرواحهم مضطربة، في الأقوال وفي الجسد أيضًا. عندما كان يسوع يوجه كلامه إلى الأرواح الشريرة ويطردها، كان هؤلاء الضحايا يهدأون ويُشفون في الوقت نفسه.

"وَبَيْنَمَا هُوَ آتٍ مَزَّقَهُ الشَّيْطَانُ وَصَرَعَهُ، فَانْتَهَرَ يَسُوعُ الرُّوحَ النَّجِسَ، وَشَفَى الصَّبِيَّ وَسَلَّمَهُ إِلَى أَبِيهِ." (لوقا ٩: ٤٢)

في لغاتٍ كثيرة، هناك ارتباط بين كلمتي الشفاء والخلاص. في اللغة الفرنسية، تكون كلمة "Mal" أي الشر جزءًا من كلمة "Maladie" أي مرض، تمامًا مثلما نجد كلمة شفاء بالألمانية "Heilung" تحتوي على كلمة "Heil" أي خلاص.

في قصة المرأة نازفة الدم منذ اثنتي عشرة سنة، فإن جسارة المرأة التي جعلتها تلمس هدب ثوب المسيح، تُفسَّر على أنها فعل إيمان، وبالتالي فهي أيضًا فعلاً خلاصيًا. حين أعلن الرب يسوع الأمر على الملأ، رغم أن المرأة ظنت أن هذا الأمر يبقى سرًا، فقد حرر المسيح المرأة من حِمل ثقيل جدًا قد ظلت تحمله أمدًا طويلاً. إنه إذ حررها من فقدان دمها المستمر، قد أعطاها مرة أخرى مكانًا في المجتمع، وحق الدخول إلى الأماكن المقدسة مثل الهيكل.

"فَقَالَ لَهَا: «يَا ابْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ، اذْهَبِي بِسَلاَمٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكِ.»" (مرقس ٥: ٣٤)

إن يسوع يربط بين الشخص وجذور الشر. إنه ينظر للموقف بشكل شامل كوني. إنه يشفي الجسد، لكنه يشفي أيضًا النفس والروح، وهذا أمر من المهم تذكره حين نتحدث عن الشفاء.

في سفر الأعمال، يدرك بطرس ذات الحقيقة. فبدلاً من أن يعطي فضة للرجل المشلول منذ ولادته، فإنه يقيم معه حوار. إنه يطلب منه أن ينظر إليه، ثم يأمره بالوقوف. وكانت النتيجة المباشرة لذلك ليست فقط أن قام الرجل، بل إنه قد صار قادرًا على دخول الهيكل وتسبيح الله. منذ ذلك الحين، لم يعُد وحيدًا ولا مُستبعَدًا من العبادة.

"فَتَفَرَّسَ فِيهِ بُطْرُسُ مَعَ يُوحَنَّا، وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَيْنَا!» فَلاَحَظَهُمَا مُنْتَظِرًا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمَا شَيْئًا. فَقَالَ بُطْرُسُ: «لَيْسَ لِي فِضَّةٌ وَلاَ ذَهَبٌ،

وَلكِنِ الَّذِي لِي فَإِيَّاهُ أُعْطِيكَ: بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ قُمْ وَامْشِ!» وَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَأَقَامَهُ، فَفِي الْحَالِ تَشَدَّدَتْ رِجْلاَهُ وَكَعْبَاهُ، فَوَثَبَ وَوَقَفَ وَصَارَ يَمْشِي، وَدَخَلَ مَعَهُمَا إِلَى الْهَيْكَلِ وَهُوَ يَمْشِي وَيَطْفُرُ وَيُسَبِّحُ اللهَ." (أعمال الرسل ٣: ٤-٨)

الفارق الوحيد الجوهري بين المؤمنين ويسوع، هو أنه منذ ذلك الحين وصاعدًا، جميع المؤمنين سوف يصلُّون باسم يسوع لأجل شفاء الأمراض. إنهم لن يشفوا المرضى بقوتهم الذاتية، أو بسلطانهم الشخصي، بل باسم يسوع.

"وَلَمَّا أَقَامُوهُمَا فِي الْوَسْطِ، جَعَلُوا يَسْأَلُونَهُمَا: «بِأَيَّةِ قُوَّةٍ وَبِأَيِّ اسْمٍ صَنَعْتُمَا أَنْتُمَا هذَا؟» حِينَئِذٍ امْتَلأَ بُطْرُسُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَقَالَ لَهُمْ: «يَا رُؤَسَاءَ الشَّعْبِ وَشُيُوخَ إِسْرَائِيلَ، إِنْ كُنَّا نُفْحَصُ الْيَوْمَ عَنْ إِحْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ سَقِيمٍ، بِمَاذَا شُفِيَ هذَا، فَلْيَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَ جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ، الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِذَاكَ وَقَفَ هذَا أَمَامَكُمْ صَحِيحًا.»" (أعمال الرسل ٤: ٧-١٠)

باسم يسوع

"وَلكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ الْبُقُولِ، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ السَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا.

وَبِأَمْثَالٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ هذِهِ كَانَ يُكَلِّمُهُمْ حَسْبَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا، وَبِدُونِ مَثَلٍ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ. وَأَمَّا عَلَى انْفِرَادٍ فَكَانَ يُفَسِّرُ لِتَلاَمِيذِهِ كُلَّ شَيْءٍ. وَقَالَ لَهُمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ لَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ: «لِنَجْتَزْ إِلَى الْعَبْرِ.»" (مرقس ٤: ٣٢-٣٥)

إن بداية الصلاة لأجل الشفاء، هي كلمة منطوقة. إنها دقيقة، ملزمة ولا تترك مجالاً للشك أو التردد. إن يسوع يخاطب الشخص ويدعوه إلى شهادة عن شفائه. إنه يشجعه على الذهاب والاغتسال في النهر، وأن يمضي ليُري نفسه للكاهن، إلخ. إن على الشخص المعني أن يبرح مكانه وموقف الانتظار وأخذ زمام الأمور بين يديه.

كثيرًا ما يربط يسوع القول باللمس. إنه يصنع طينًا ليدهن به العيون، إنه يلمس أو يمد يده. كثيرًا ما وضع يده على رأس الشخص، بما نسميه وضع الأيدي. كما يطلب من تلاميذه أن يحذوا حذوه.

"وَقَالَ لَهُمُ: «اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. وَهذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لاَ يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ.»" (مرقس ١٦: ١٥-١٨)

إن وضع الأيدي يُستخدَم لعمل اتصال بين الشخص وروح الله. إنه يُستخدَم للمباركة، ولإعطاء هبة، أو خدمة، أو لطرد شيطان أو مرض. تتكلم الرسالة إلى العبرانيين عن تعليم هو تعليم وضع الأيادي ***(عبرانيين ٦: ٢)***. العمل الآخر المُستخدَم لنفس الغاية في العهد القديم كان مسحة الزيت، وقد ذكر مرتيْن في العهد الجديد.

"وَأَخْرَجُوا شَيَاطِينَ كَثِيرَةً، وَدَهَنُوا بِزَيْتٍ مَرْضَى كَثِيرِينَ فَشَفَوْهُمْ." (مرقس ٦: ١٣)

"أَمَرِيضٌ أَحَدٌ بَيْنَكُمْ؟ فَلْيَدْعُ شُيُوخَ الْكَنِيسَةِ فَيُصَلُّوا عَلَيْهِ وَيَدْهَنُوهُ بِزَيْتٍ بِاسْمِ الرَّبِّ." (يعقوب ٥: ١٤)

لكن على أية حال، فإنه إن كان ليسوع القدرة على الشفاء وطرد الأرواح الشريرة، فإن ذلك لا ينطبق على المؤمنين. إنهم يتلقون هذا السلطان من الله، لكن فقط في اسم يسوع. الله يعمل ويتحرك من خلال روحه القدوس. يتمتع التلميذ بنفس سلطان سيده. الشفاء اليوم لا زال شهادة على اقتراب ملكوت الله. لكن المؤمن مع ذلك ليس أكثر من مجرد واسطة. إنه يعمل باسم المسيح وحده.

أربعة أوجه للمرض

بحسب الإنجيل، فإن للأمراض أصلاً روحيًا. إن الأمراض تنبع من الاغتراب عن المنبع الحي الذي هو الله وشجرة الحياة. الله لا يريد للناس لا الموت أو المرض. البعض منها هو عمل قدرات شيطانية، والبعض الآخر نتاج للخطية أو ببساطة للغربة الروحية. في سفر أيوب نرى هذه الأشياء وقد حدثت بتصريح إلهي لاختبار إيمان الإنسان وجعله ينمو.

عندما نصلي لأجل إنسان ما، بصرف النظر عن السبب، فمن المهم أن نظل إيجابيين وأن نؤمن أن الله قادر وسيتدخل. مهما كان نوع الألم، ينبغي مساعدة الشخص المعني وأن نميز، معًا، مصدر وأصل الشر. فينبغي أن نُشعِره باتحادنا معه وأننا إلى جانبه نحارب معه لأجل أن يغلب وينتصر. حين يتأخر الشفاء، فلابد من ملازمة الشخص والبحث معه عن أسباب عدم الاستجابة. في كل الأحوال ينبغي أن نبقى إلى جواره لمساعدته على التغلب على أوجاعه.

لم يصنف يسوع الأمراض قط. كان يتعامل مع كل شخص في ذاته، دون عمل تمييز لاحتياجاتهم المختلفة. لكن مع ذلك، فإن الممارسة الفعلية المستلهمة من خلال التقدم السيكولوچي والمُجرَّبة من العديد

من الأجيال من مجموعات تمارس شفاء القلب بالصلاة، تدعونا إلى أن نميز بين أربعة أنواع من المشكلات. ونحن نجد في ذلك إلهامًا لاعتقادنا أن ذلك يساعد الأشخاص على التفكير في احتياجهم وعلى التقدم الروحي.

١. شفاء الجراح.
٢. العتق من القيود.
٣. غفران الخطايا.
٤. طرد القوى الشريرة.

١. شفاء الجراح

"وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ، وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ، وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ." (متى ٤: ٢٣)

كما رأينا، فإن يسوع كان يشفي كل مَن يأتي إليه دون تمييز أو تفرقة، وهو نفس ما عمله تلاميذه. إن الشفاء علامة سابقة على اقتراب ملكوت الله. هناك بعض الأمراض التي يمكن التعرف عليها من خلال أعراضها الواضحة. لكن أمراض أخرى كثيرة تكون غير ظاهرة وسرية، لأنها تصيب أعضاءً داخلية أو تصيب نفس الإنسان. هناك تشوهات خلقية، لكن هناك أمراض ناتجة عن عادات غذائية خاطئة أو بسبب البيئة أو مرتبطة بشكلٍ مباشر بأسلوب الحياة أو مشاكل عائلية أو مهنية.

إن بعض هذه المشكلات يعلن عن نفسه تدريجيًا، في حين يحدث البعض الآخر بشكلٍ مفاجئ أو من خلال حادث. أصعبها في العلاج هي تلك المرتبطة بتبعات الإساءة للإنسان في فترة طفولته، أو جراء

إساءات من كل نوع سواء جسدية أو نفسية أو جنسية. إنها أحيانًا ما يكون لها تبعات مرئية ظاهرة، لكنها في الأغلب الأعم تظل كامنة في أعماق الذاكرة. في حين تُشفَى بعض الأمراض بشكلٍ مفاجئ، فإن التدخل الإلهي قد يستغرق وقتًا، ويحدث بشكلٍ تدريجي، مثل مُقعَد ينهض من كرسيه المتحرك ويمشي على قدميه. ورغم صعوبة أن يلمح المحيطين به ذلك، إلا أن التغيرات العميقة هي كذلك هامة وقوية.

كانت لي فرصة المشاركة في شفاءٍ، هزتني بعمق، خلال صلاة جماعية. كان رجلاً يعاني منذ عقود من عدم قدرته على قبول نفسه أو أن يُعبِّر عن الحب. كان لذلك آثار هامة على حياته الأسرية والعاطفية. عندما صلينا لأجله، تذكر فجأة أنه كان له أخ توأم، مات عند الولادة. لم يخبره والده بهذا السر إلا وهو في سن السابعة عشرة، مما نتج عنه أن نشأ طفلاً وحيدًا.

عندها انفجر في الدموع بتذكره ما حدث مدركًا أن فراقه عن أخيه قد ترك آثاره على علاقته بوالديه وحتى مع أصدقائه وزوجته. لم يكن قد أدرك قبل ذلك قط أهمية هذا الأمر، ولا كان حزنَ على أخيه، وقد ترك كل ذلك جرحًا عميقًا في نفسه. لكن ما أن سلَّم هذا الأمر للرب، فقد فتح مجالاً للشفاء والسكينة.

"وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ مَجَانِينَ كَثِيرِينَ، فَأَخْرَجَ الأَرْوَاحَ بِكَلِمَةٍ، وَجَمِيعَ الْمَرْضَى شَفَاهُمْ." (متى ٨: ١٦)

٢. العتق من القيود

"رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ." (لوقا ٤: ١٨)

إن جزءًا كبيرًا من آلام البشرية نابع من القيود الشريرة. إن هذه تمنع الإنسان عن النمو بشكلٍ حُر متزن. إنها كسجنٍ بلا قضبان. فالشخص ليس حُرًا في أقواله وأفعاله، إذ يتيعن عليه الخضوع لقواعد مفروضة عليه من خارج نفسه، سواء أكان مصدرها الأهل أو القبيلة أو التقاليد أو أشخاص آخرين ذوو تأثير.

سبق أن أوضحنا الأهمية القصوى التي يوليها الله لأن يجعل منا كائنات حرة؛ حرة في التفكير والتصرف والإيمان. عندما يكون إنسان ما مربوطًا، فإنه يكون كمربوط في عامود بواسطة حبل. إن فيلاً مربوطًا بسلسلة في شجرة ينسى القوة الكامنة فيه. إنه يحاول أن يتخلص من قيده، لكن الشجرة أقوى منه وتقاومه إذ لا زال صغيرًا. لكنه حين يكبر ويصبح قويًا، يصير قادرًا على اقتلاع الشجرة. وهو لا يفعل ذلك لأنه يدرك أن الأسْر هو جزء طبيعي فيه. والأمر ذاته ينطبق على البشر.

إن قذفنا بضفدعة في ماء مغلي، فإنها ستنتفض خارجة من الإناء. لكن إن وضعناها في ماء بارد وبدأنا في تسخينه تدريجيًا، فإنها لن تدرك الخطر المحدق بها إلا متأخرًا جدًا، حتى أنها تفقد قدرتها على القفز. إن الرُبط السيكولوچية من الممكن أن تكون عميقة فينا إلى حد أن تصنع في أرواحنا ضبابًا وتقضي على أي قدرة على التصرف. في مجتمعنا المادي، يزداد إلى حد الانفجار عدد الناس الذين يعانون في صحتهم النفسية. إن الاكتئاب والانتحار هما أعراض لاضطراباتٍ جوهرية.

"تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ." (متى ١١: ٢٨-٣٠)

إن تعليم المسيح هنا ليس تعليمًا عقليًا. إنه تعليم عملي مرتبط بفعل خلاصي يتضمن تحريرًا داخليًا، وهو أمر يبدأ بإيمانٍ واعٍ علني: أن نلقي عند الصليب كل أحمالنا التي تعوقنا، بلا أي شك في مواعيد الله. لأن في داخلنا آليات إفساد قوية قادرة على كسر وإزالة كل جهد يسعى إلى اتخاذ خطوات في الاتجاه الصحيح.

قد نكون قد لعبنا لعبة الجري داخل أجولة، أو الجري وأرجلنا مربوطة بأرجل شريك آخر، وقد أدركنا كيف نصبح عاجزين عن الحركة، وبالأكثر عن الجري. لكن ببعض المجهود والمحاولة قد ننجح قليلاً. إن الأمر ذاته ينطبق على قدرتنا على النجاح رغم جراحنا أو عجزنا الشديديْن. قد يحدث بعد سنوات من الممارسة، أن ننسى قيودنا التي تعوقنا وتمنع انطلاقنا.

لا أحد ينكر قوة الكلمات، سواء جيدة أو رديئة. هناك أقوال تمنع الإنسان من التقدم والنمو قد يتسبب فيها أهلٌ ليس لديهم حساسية، مثل أن يقولوا لأولادهم: أنت غبي، لن تفلح في شيء قط، لم ينجح أحد في عائلتنا دراسيًا، إلخ. إن كلمات كتلك تعمل كقيود للعقل والجسد. إننا عندها نشبه الفيل المربوط إلى شجرة، نظل مربوطين بتلك الكلمات الكاذبة السيئة. وحتى إن نجحنا في حياتنا، نظل محدودين فيما نعمله وننجزه.

لقد اعتاد الكثيرون أن يحيوا مثقلين بأسرارهم الخاصة، وأن يضعوا جانبًا ذكريات الطفولة السيئة، أو أن يتساموا بالصدمات المرتبطة بالإساءة من كل نوع. لقد تعلموا أن يتجنبوا المواقف المحرجة وأن يهربوا من الأشخاص الذين يذكروهم بالخبرات السيئة. وقد يدوم هذا الأمر طويلاً حتى يصير من الصعب إخراج والتخلص من هذه الخبرات والأفكار والمشاعر، مما يكون له أبلغ الأثر على كياننا كله.

بالنسبة ليسوع، لا شيء يبرر أن يحيا الإنسان بهذه القيود المدمرة. في مواضع كثيرة نرى يسوع يحرر الإنسان من قيوده العائلية والاجتماعية والجسدية والروحية. إنه بسلطان كلامه يقطع تلك القيود. إن تلاميذه أيضًا مدعوون لعمل الشيء ذاته: إن يسوع يعطيهم إمكانية والتزام أن يحرروا الناس من القيود. لكن بملاحظة ما يجري في كنائسنا، نجد للأسف إنه لا زال هناك عمل كبير لم يتم.

في حالتي، حاولتُ أن أنفك من متطلبات وضعها عليَّ أهلي. لقد عشتُ لسنواتٍ، تحت ضغط هائل كان يعوقني عن أن أكون منتجًا وناجحًا. كان عليَّ أن أعمل بقوة، لو كنت أريد النجاح، حتى تكوَّنت في داخلي روح تحكُّم لا أستطيع حتى اليوم منها فكاكًا. لكن كم كان الأمر يكون أفضل لو عشت بدون هذا الضغط الدائم وأن أتعلم أن أضع ثقتي في المسيح. إنه بحسب وعده، يلهمني ويعينني يومًا فيوم.

"وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ. وَكُلُّ مَا تَحُلُّهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَحْلُولاً فِي السَّمَاوَاتِ." (متى ١٦: ١٩)

إن قصة المرأة السامرية في ***(يوحنا ٤)***، تشرح ما نحن بصدده. لقد قيَّدَتها طريقة حياتها وعلاقاتها الشريرة، حتى هربت من الناس وسعَت لملء جرتها حين لا يذهب الآخرون لهذا الغرض؛ حيث يكون الحَر شديدًا. لقد تعلَّمَت أن تعيش مع حِملها الثقيل.

لكن من خلال حدث بسيط كشف خلاله الرب يسوع كل خطاياها، تحررت هذه السامرية من سِرَّها. لقد وجدَت قوة داخلية غير مسبوقة دفعتها لكسر عزلتها الاجتماعية مُخبِرةً جيرانها بما اكتشفته تـوًا. إن هذا اللقاء مع يسوع قد دفعها لتغيير أسلوب حياتها.

هناك قصة مشابهة لتلك حين مضى إيليا إلى أرملة بيت صرفة ***(١ ملوك ١٧)***. لقد كانت تحتفظ بسر فقرها وعوزها. عاجزة عن طلب المعونة، كانت تستعد للموت جوعًا، مع ابنها. لكن الرب قاد إيليا لإخراجها من عزلتها وقيادتها إلى اتخاذ خطوات إيمان، ستكون لها تأثيرًا خلاصيًا وسبب نجاة لها. عندما قدمت القليل من الطعام الذي تبقَّى لديها، اختبرت خلاص وكرم الله، الذي كادت أن تنساه.

٣. غفران الخطايا

"وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فِي الْخَطَايَا وَغُلْفِ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحًا لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا." (كولوسي ٢: ١٣)

قد يحدث من كثرة تكرارنا لأن يسوع يغفر خطايانا، أن نستخف بهذا العمل المحرر أو نعتاد عليه دون إدراك لقوته وعمقه لأن الإيمان المسيحي يرتكز على هذه الحقيقة ***(١ كورنثوس ١٥: ٣)***. لقد أخذ يسوع مكان الذبائح في الهيكل من أجلنا. إنه لم يُبطِل فقط هذه الذبائح، بل لقد أصبح الغفران يُمنَح لنا ومعه الروح القدس. فيصبح يسيرًا علينا أن نتقابل مع الله وأن نصلي له ونسمع صوته.

إن الغفران المحرر الشافي يجد أصله في العهد القديم في قصة موسى في البرية. ففي حين اختبر الشعب العتق من العبودية، فها هو يقع في التمرد والشكوى. وفي حين يتمتع بالطعام الإلهي، أي المَن، فها هو تشتد أقواله ضد الله وخادمه. فيرسل الله على الشعب الحيَّات ليُذكِّرهم أن كل شيء يعتمد عليه وعلى نعمته.

"فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْنَعْ لَكَ حَيَّةً مُحْرِقَةً وَضَعْهَا عَلَى رَايَةٍ، فَكُلُّ مَنْ لُدِغَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا يَحْيَا.»" (عدد ٢١: ٨)

لا شيء يغلب الحية التي تبعث على الانقسام والتجربة، سوى الصليب؛ نراه هنا مُمثَّلاً بشكل رمزي في حية موضوعة على عصا. حين رُفِع المسيح على الصليب، فقد قيَّد الحية. وحين نرفع أعيننا اليوم نحو المخلص، فإننا نأخذ النصرة التي حققها على الحية لأنفسنا وتنكسر قوة الشر.

"وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ." (يوحنا ٣: ١٤-١٦)

إن غفران الخطايا يعمل ككاسر للقيود التي تكلمنا عنها سابقًا. حين نطبق على حياتنا دم المسيح، نستفيد من عمله الخلاصي؛ فإن قيودنا مع حياتنا الفاسدة تنكسر مرة واحدة وإلى الأبد. ورغم أننا نظل خطاة، لكننا رغم ذلك يمكننا أن نتحرر مما تنتجه هذه الخطايا فينا. لأن الخطايا، مثلها مثل القيود، تضع ثقلاً على ضمائرنا وتُصِبنا بالعجز. إنها تصبح كذكريات سيئة نحاول أن نتجاهلها أو أن نمحوها.

"إِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ لَنَا خَطِيَّةٌ نُضِلُّ أَنْفُسَنَا وَلَيْسَ الْحَقُّ فِينَا."
(١ يوحنا ١: ٨)

إن كان المسيح لا يدينا بسبب خطايانا، إلا أنه يدعونا ألا ننظر للغفران كأنه عمل سحري.

في القرن السادس عشر، أقنعت كنيسة روما بشكلٍ غير أمين أنه بشراء صكوك الغفران، فإن الله سيمحو مرة واحدة وإلى الأبد أي خطية مهما كانت. كأن رضا الله يمكن أن يُشترَى بمالٍ! من البديهي أن نقول أنه لا يصح أن نقول اليوم أنه بما أننا قد نلنا الغفران أنه يمكن أن

نسمح لأنفسنا بأي شيء أو عمل! إن الله لا ينسى أعمالنا، لكنه ينقيها مثل النار التي تحرق الأوساخ ولا تُبقِي إلا على الجوهر الثمين.

في حادثة المرأة التي أُمسِكت تزني في ذات الفعل وأراد الناس أن يرجموها، لم يقُل يسوع: اذهبي، قد غفرتُ لكِ مرة واحدة وإلى الأبد، لا. بل يدعوها ألا تعود للخطية مرة أخرى. إن التوبة وحدها قد جلبت لها الخلاص.

"وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ، انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!» ثُمَّ انْحَنَى أَيْضًا إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأَرْضِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ، خَرَجُوا وَاحِدًا فَوَاحِدًا، مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسْطِ. فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَدًا سِوَى الْمَرْأَةِ، قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟» فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!» فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا.»" (يوحنا ٨: ٧-١١)

هناك ارتباط في الإنجيل بين الشفاء وغفران الخطايا. فيبدو المرض صادرًا عن رباط أو قيد روحي لابد من التحرر منه. من خلال كلمة سلطانه، يلمس يسوع الماضي فاتحًا أبعادًا جسدية ونفسية وروحية جديدة. فيجد الشخص الذي شُفِي نفسه مُدلَّلاً من الله وقادرًا على العودة لصُحبة الأحياء واستعادة مكانه في المجتمع والهيكل.

"وَإِذَا مَفْلُوجٌ يُقَدِّمُونَهُ إِلَيْهِ مَطْرُوحًا عَلَى فِرَاشٍ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «ثِقْ يَا بُنَيَّ. مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ.» وَإِذَا قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَدْ قَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: «هذَا يُجَدِّفُ!» فَعَلِمَ يَسُوعُ أَفْكَارَهُمْ، فَقَالَ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ: مَغْفُورَةٌ لَكَ

خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَامْشِ؟ وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا.» حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «قُمِ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!»" (متى ٩: ٢-٦)

لقد أعطانا المسيح مثل الرسل سلطانًا بل واجبًا أن نغفر ونحرر الناس عن خطاياهم. وهذا يبدأ أولاً مع أنفسنا. لأننا لا نستحق الغفران بأي شكل وبالأولى ليس من حقنا أن نعلنه لآخرين، إلا فقط بسلطان اسم يسوع، نستطيع فقط أن نستفيد بمفاعيل خلاص يسوع.

"وَلَمَّا قَالَ هذَا نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ." (يوحنا ٢٠: ٢٢)

إن الغفران ليس قولاً مُبهَمًا، يُعطَى دون إدراك ووعي. في كل مرة يُنطَق به، فإنه يطلق قوى سمائية. وأن نحيا بالغفران معناه أن نقبل أن نعتمد على نعمة الله. هو وحده القادر أن يعيننا أن نمضي في الطريق الصحيح. هو وحده القادر أن يمنحنا قدرة الغفران لأسوأ أعدائنا. إن هذا الغفران مكلف! مثلما ذكَّر الرب بطرس عن كم مرة ينبغي أن يغفر للآخرين.

"حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟»" (متى ١٨: ٢١)

تُعبِّر الخطية عن نفسها بطرقٍ كثيرة. إنها تبدأ برفض التصديق، وتجعلنا نظن أننا أعلى من الآخرين. لكنها تتجذر في أعماقنا، ومن هناك تؤثر في أفكارنا ومشاعرنا، ويمكن ملاحظة هذه من خلال كلامنا وأعمالنا وحركاتنا. إننا نعلم جميعًا إلى أي حد يكون التحكم في أفكارنا السيئة صعبًا. يُعبّر بولس عن ذلك بكل قوة حين يقول:

"فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ، أَيْ فِي جَسَدِي، شَيْءٌ صَالِحٌ. لأَنَّ الإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي، وَأَمَّا أَنْ أَفْعَلَ الْحُسْنَى فَلَسْتُ أَجِدُ." (رومية ٧: ١٨)

"فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ النَّامُوسُ وَالأَنْبِيَاءُ." (متى ٧: ١٢)

"اِغْضَبُوا وَلاَ تُخْطِئُوا. لاَ تَغْرُبِ الشَّمْسُ عَلَى غَيْظِكُمْ، وَلاَ تُعْطُوا إِبْلِيسَ مَكَانًا." (أفسس ٤: ٢٦، ٢٧)

إن الغفران يحررنا من أثقالنا ويقطع جذور الشر. هكذا، تنقطع أيضًا رُبطنا وقيودنا الشخصية والعائلية والمهنية، فنستطيع أن نقلب الصفحة بما تحويه من آلام وجراح وظلم ونهب، فلا يعود شيء من هذه يؤثر فينا، وننظر للحياة بتفاؤل.

لقد صار الكل جديدًا! فنستطيع كذلك على مثال المسيح، الذي غفر لصالبيه، أن نمضي كما مضى بسلام ***(لوقا ٢٣: ٣٤).***

"وَكُونُوا لُطَفَاءَ بَعْضُكُمْ نَحْوَ بَعْضٍ، شَفُوقِينَ مُتَسَامِحِينَ كَمَا سَامَحَكُمُ اللهُ أَيْضًا فِي الْمَسِيحِ." (أفسس ٤: ٣٢)

٤. طرد القوى الشريرة

"وَلكِنَّنَا فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا. فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا." (رومية ٨: ٣٧-٣٩)

إن هذا الأصحاح حول القوى الشريرة هو بالتأكيد الأكثر جدلاً وتحديًا. فبالنسبة للبعض، فإن الأرواح الشريرة غير موجودة. فالكتاب المقدس يستخدم هذه التعبيرات بشكلٍ مجازي للتعبير عن تأثير الشر على حياتنا. دليلهم أن في مجتمعنا يُشفَى المرض بواسطة الأطباء

والأدوية، وكذلك تُشفَى الأمراض النفسية في جلسات العلاج المُثبَتة علميًا. فإذا لم يحدث شفاء، فإنهم يرون أن عنصرًا وراثيًا مجهولاً هو سبب الشخص المريض.

في حين يرى غيرهم الأرواح في كل مكان، لدرجة تكاد تمنع الناس من القدرة على اتخاذ أية قرارات بإرادة حرة واضحة. إنهم يخشون أكثر ما يخشون تأثير القوى الشريرة على حياتهم، وبناءً عليه يسعون لوضع أنفسهم تحت حماية أرواح أخرى أكثر قوة من تلك. يحدث كذلك أن يرى بعض المسيحيين الشيطان في كل مكان؛ إن مجرد ذِكر اسمه يجعلهم يرتعدون، حتى يبدوا أنهم قد أعطوا لإبليس قدرات أعلى من المسيح نفسه.

إن الخوف هو أسوأ سلوك. نحن نعلم ذلك. فسواء في مواجهة موقف صعب أو قرار معقد أو أمام الموت، يمنعنا الخوف من القدرة على التصرف ويُعجِّزنا بشكلٍ جاد. ومع ذلك، فإننا في المسيح أعظم من منتصرين، لأنه يقوينا ***(رومية ٨: ٣٧)***.

لقد هزم المسيح الموت مرة واحدة وإلى الأبد. لقد أعطاه الله، عندما أقامه، كل قوة وسلطان على القوى الروحية. لكن الاستخفاف بهذه الأرواح يعطيها مجالاً للعمل بحرية، كما أن الخوف منها معناه أن ننسى السُبل والإمكانات المُعطاة لنا من الله لمواجهتها.

"فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ." (أفسس ٦: ١٢)

يُذكِّرنا الرسول بولس بأن أمامنا حربًا روحية، لكن النصرة فيها قد حدثت فعلاً، حتى لتبدو كأنها معركة غير متكافئة ينبغي أن ندخلها بقوة

وثقة، مثل داود الذي واجه جليات واثقًا بحضور الله إلى جانبه، هكذا نفعل نحن أيضًا واثقين في وجود المسيح إلى جانبنا. في اسمه ننال السلطان اللازم لتحدي القوى الروحية.

"ثُمَّ دَعَا تَلاَمِيذَهُ الاثْنَيْ عَشَرَ وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا عَلَى أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ حَتَّى يُخْرِجُوهَا، وَيَشْفُوا كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضُعْفٍ." (متى ١٠: ١)

إن الخبرة التي ذكرتها في مقدمة هذا الكتاب قد أثرت فيَّ بعمق. فعندما دُعيت للصلاة لتلك السيدة الشابة، لم أكن أرغب إلا في رؤية شفائها الداخلي واكتشافها للمسيح المخلص. لكن كان ظهور روح شيطاني بها مفاجأة بالنسبة لي. كنت بموجب إيماني وما تعلمته ومن خلال حساسيتي قادرًا على مجابهته. كما أننا كنا ثلاثة معًا. بعد معركة دامت عدة دقائق، عندما كنا خلالها نطرد ذلك الروح باسم يسوع، فقد ظهرت مظاهر شيطانية متمثلة في نظرات نارية مفعمة بالكراهية، لكن السلام ساد وعمَّ المكان بعد ذلك.

بعد خلاصها، لم تكن السيدة تتذكر شيئًا. كانت فيما سبق يستحيل أن تذكر اسم يسوع، فقد أصبحت الآن حرة في اختيار ما تقوله. كان التحرر الروحي مصحوبًا بتحرر داخلي. لقد قبلت أن تعانقني مع أنها قبلاً لم تكن تحتمل أن أربت على كتفها. أستطيع إذًا أن أؤكد وجود الأرواح الشريرة، وأنه يمكن إزالتها من على عروشها بنعمة الله.

"إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ." (كولوسي ٢: ١٥)

في الكتاب المقدس، ليس هناك فرق بين السحر الأبيض أو النفعي أو السحر الأسود المظلم والشرير. ليس هناك سوى الله وملائكته في مواجهة إبليس وأعوانه. تنبهنا الكلمة المقدسة إلى أن الشيطان يمكنه أن

يأخذ شكل ملاك نور ***(٢ كورنثوس ١١ : ١٤)***. فمن الممكن جدًا تحت ستار صنع الخير أن يتسلط على الناس. إن أحسنَّا استخدام الوسائل الروحية التي وضعها المسيح بين أيدينا، فليس هناك ما يدعونا قط لأن نلجأ للسحر أو لأي طقوس سرية.

"فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مَنْ كَانَ عَلَى السَّطْحِ وَأَمْتِعَتُهُ فِي الْبَيْتِ فَلاَ يَنْزِلْ لِيَأْخُذَهَا، وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ كَذلِكَ لاَ يَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ. اُذْكُرُوا امْرَأَةَ لُوطٍ! مَنْ طَلَبَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ أَهْلَكَهَا يُحْيِيهَا."
(لوقا ١٧ : ٣١-٣٣)

الجزء السابع: الثمار

دعونا من خلال الثمار، نختم حديثنا عن الشجرة كرمز روحي. لقد وعَيْنا أن الجذور أهم من الثمار، لأن بفضلها وبفضل الفروع ونضج الشجرة قد صار ممكنًا أن تظهر الأوراق والثمار. كما أن الجذور بدون الوصول للماء لا تنفع شيئًا. إن الفضل كله في النهاية يعود للخالق ولقوة الحياة التي يستودعها في الطبيعة.

لابد أن تمر الشجرة بمراحل نمو، إذ تدعم وتقوي أساساتها وتُكوّن جذورها ولحاءها لتصير قادرة على مواجهة الزمن والأزمات. لكن الثمار هي مرآة لصحة ونضج الشجرة. إنها كهدية للبيئة المحيطة عندما يلتقي التوازن والصحة معًا. إن محاولة الإسراع بنضج الشجرة لا ينفع شيئًا. إن الروح فينا يضع ثماره في حينها عندما يكون ذلك هو أوان الله: كايروس "Kairos".

"فِي وَسَطِ سُوقِهَا وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ." (رؤيا ٢٢: ٢)

هكذا، ينطبق الأمر ذاته على شجرة الحياة التي تعطي الشفاء لكل مَن لهم سلطان الاقتراب منها. إن وفرة إنتاجها عظيمة إلى حد أن المواسم تتلاشى. إن شجرة الحياة تعطي أكثر من الحاجة طوال الوقت.

التعرف على الشجرة وثمارها

"هَكَذَا كُلُّ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً، وَأَمَّا الشَّجَرَةُ الرَّدِيَّةُ فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، لاَ تَقْدِرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا رَدِيَّةً، وَلاَ

شَجَرَةٌ رَدِيَّةٌ أَنْ تَصْنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً. كُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. فَإِذًا مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ." (متى ٧: ١٧-٢٠)

إن الثمار هي دلالة على النعمة. إنها تظهر في الوقت المناسب وبالكمية اللازمة. كما أن الطبيعة قد أرادت أن يكون للحشرات دورًا في تلقيح الأزهار. فبدون هذه المعونة الخارجية تسقط الأزهار دون أن تتحول إلى ثمار.

إن مقدار الثمار لا يعتمد إذًا فقط على حالة الشجرة! لكن حالة الثمار هي التي تقول الكثير عن حالة الشجرة. فالشجرة المريضة ليست في حال يسمح لها بإنتاج ثمار طيبة كثيرة.

"وَقَالَ هذَا الْمَثَلَ: «كَانَتْ لِوَاحِدٍ شَجَرَةُ تِينٍ مَغْرُوسَةٌ فِي كَرْمِهِ، فَأَتَى يَطْلُبُ فِيهَا ثَمَرًا وَلَمْ يَجِدْ. فَقَالَ لِلْكَرَّامِ: هُوَذَا ثَلاَثُ سِنِينَ آتِي أَطْلُبُ ثَمَرًا فِي هذِهِ التِّينَةِ وَلَمْ أَجِدْ. اِقْطَعْهَا! لِمَاذَا تُبَطِّلُ الأَرْضَ أَيْضًا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدُ، اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا، حَتَّى أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلاً. فَإِنْ صَنَعَتْ ثَمَرًا، وَإِلاَّ فَفِيمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا.»"
(لوقا ١٣: ٦-٩)

يشرح المسيح من خلال هذا المَثل أن الله يعتني بحديقته المثمرة، راغبًا في الحصول على أفضل المنتجات. إنه ينذر بوضع حد لشجرة مريضة عندما لا تتوج جهوده معها بالنجاح. لكنه يبين أيضًا من خلال هذا النص طول أناته من نحونا نحن البشر وقدرتنا على الاستجابة لتوقعاته منا.

إنه ليس ظالمًا يبحث عن الفائدة سريعًا وبأي ثمن. لكنه يُذكِّرنا بأن كل واحد منا لابد أنه سيتواجه مع المصير الذي عمل عليه ولأجله.

علامات النضج كرمز على الكرَم

"وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ، فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ." (مرقس ٤: ٢٩)

إن الثمار تظهر على الشجرة السليمة الصحيحة بعد عدة سنوات من النمو. في البداية تكون قليلة، ثم تزداد تدريجيًا بنمو الشجرة وفروعها.

إن الشجرة بما تمنحه من ثمار هي جزء من نفسها، لا تضعف بل على العكس، إن ذلك يمثل أحد مصادر قوتها: إنها تعطي بسخاء. وهكذا، تنقل من خلال بذورها جزءًا من حياتها. من خلال فروعها المتفرقة والمتوجهة نحو الشمس في نوع من التعبد والبركة، فإنها تنفتح على العالم المحيط بها مستفيدة تمامًا من الحرارة الآتية من خالقها. إن الثمار هبة وهدية رمزًا للحب المشترك وفيضًا للحيوية والحكمة.

"فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرَيْتُكُمْ أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنَّكُمْ تَتْعَبُونَ وَتَعْضُدُونَ الضُّعَفَاءَ، مُتَذَكِّرِينَ كَلِمَاتِ الرَّبِّ يَسُوعَ أَنَّهُ قَالَ: مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ.»" (أعمال الرسل ٢٠: ٣٥)

بهذه الطريقة تُعبِّر الثمار عن الشجرة التي تحملها، شجرة سخية ومفعمة بالثمار، التي تجذب الزائرين من البشر والحيوانات. إنها تصبح نقطة التقاء ومشاركة وحياة وميناء سلام. حتى وإن كان ليس بمقدور الشجرة إلا أن تحفز نمو الثمار لا أن تفرخها، فإنها تلعب دورًا أساسيًا في إنضاجها. ونحن أيضًا ربما لا نقدر من ذواتنا أن نحفز ظهور الثمار، لكن عندما نقدم أفضل ما لدينا، نستطيع أن نثق أن الرب يبارك ويضاعف الثمار فينا وبنا.

"الحياة مرآة: لن تعطيكم قط أكثر مما تتمنونه." [٢٥]

ثمار التجديد والتغيير

"فَاصْنَعُوا أَثْمَارًا تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ." (متى ٣: ٨)

مهَّد يوحنا المعمدان طريق الرب من خلال التوبة والمعمودية في نهر الأردن كشهادة. قرر يسوع أن يجتاز في هذا الطريق رغم أنه هو طريق الخلاص. على أية حال، فإن إتمام مشيئة الله يعتمد على فعل ملموس والتزام رسمي ***(لوقا ١١: ٢٣)***.

إن كان بولس يركز على أهمية النعمة والتبرير بالإيمان وحده من أجل الخلاص، فإنه لا يتغاضى عن إظهار طبيعة الإيمان من خلال الأعمال. عندما يدعونا أن نقتدي به، كما يقتدي هو بالمسيح، فذلك ليس لكي يضع نفسه في المقدمة، بل ليرفع مستوى الطلبات. إنه يقول ذلك ليبين أنه بما أننا هياكل للروح القدس، فلابد أن نحيا حياة نشهد شهادة حية عن المسيح.

"فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ." (رومية ١٢: ١)

الانفتاح على الروح القدس يتضمن أن نصبح ضعفاء. هناك فاكهة قشرتها صلبة لكن ما بداخلها طري. البعض الآخر على العكس، له نواة قوية، محاطًا باللحم الكثير وقشرة خارجية خفيفة جدًا. إن هذه الظاهرة موجودة أيضًا لدى الحيوانات. لننظر مثلاً للسلحفاة. إن لها درعًا قويًا لحمايتها، في حين ليس لدى الأسماك سوى القشور، والبشر

[٢٥] مصدر غير معلوم.

لديهم عمودًا فقريًا يُؤمِّن لهم التوازن الداخلي. الرب يدعونا ألا نكون مفرطين في الحماية ولا أن ننغلق على الآخرين. لقد حملَ آلامنا، ولم يخشَ أن يتعرض للاحتقار والعنف من قِبَل سلطات زمانه.

كثيرًا ما تكون الحياة شاقة وخطر أن ينغلق الإنسان على نفسه وارد جدًا. يبني البعض حول نفسه دروعًا مثل السلحفاة ليحتمي بها عوضًا عن أن يضع ثقته في الرب الذي وعد أن يدافع عنا وأن يعطينا الكلمة المناسبة في دقتها. لقد وقف يسوع صامتًا أمام قضاته. ليتنا نكون مثل ثمار المانجو لها نواة مركزية ولحم طعمه جميل، بدلاً من أن نكون حبات بندق ذات قشرة صلبة تحتمي بها. إن شهادتنا عندها ستكون مختلفة تمامًا.

"لأَنَّكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ عَبِيدَ الْخَطِيَّةِ، كُنْتُمْ أَحْرَارًا مِنَ الْبِرِّ. فَأَيُّ ثَمَرٍ كَانَ لَكُمْ حِينَئِذٍ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَسْتَحُونَ بِهَا الآنَ؟ لأَنَّ نِهَايَةَ تِلْكَ الأُمُورِ هِيَ الْمَوْتُ. وَأَمَّا الآنَ إِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ الْخَطِيَّةِ، وَصِرْتُمْ عَبِيدًا للهِ، فَلَكُمْ ثَمَرُكُمْ لِلْقَدَاسَةِ، وَالنِّهَايَةُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ، وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا." (رومية ٦: ٢٠-٢٣)

الأقوال

"لأَنَّهُ مَا مِنْ شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ تُثْمِرُ ثَمَرًا رَدِيًّا، وَلاَ شَجَرَةٍ رَدِيَّةٍ تُثْمِرُ ثَمَرًا جَيِّدًا. لأَنَّ كُلَّ شَجَرَةٍ تُعْرَفُ مِنْ ثَمَرِهَا. فَإِنَّهُمْ لاَ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ تِينًا، وَلاَ يَقْطِفُونَ مِنَ الْعُلَّيْقِ عِنَبًا. اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاَحَ، وَالإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الشِّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ. فَإِنَّهُ مِنْ فَضْلَةِ الْقَلْبِ يَتَكَلَّمُ فَمُهُ." (لوقا ٦: ٤٣-٤٥)

قد تكون الكلمات أكثر ضررًا من الأفعال. فإن كلمات قاسية ومُحبِطة يتم تكرارها منذ الطفولة على مسامع الإنسان، مثل: لن تنجح

قط، أنت لا شيء، من الممكن أن تكسر كل أمل في نجاح دراسي أو مهني. إن كلمات كهذه تشبه تلك السلسلة التي تحيط برجل الفيل، إذ تجعله أسيرًا مدى الحياة.

في لغة التواصل غير المنطوقة بين الناس فإن أقسى ما يمكن تحمله هي تلك المواقف القلبية التي يحس بها دون كلمات. إن ما يبقى محفورًا في ذاكرة مَن نتحدث إليهم ليست هي الكلمات، بل تعبيراتنا غير المنطوقة. لأن ما نحس به حقًا هو ما يخوننا ويشعر به الآخرون.

" هكَذَا اللِّسَانُ أَيْضًا، هُوَ عُضْوٌ صَغِيرٌ وَيَفْتَخِرُ مُتَعَظِّمًا. هُوَذَا نَارٌ قَلِيلَةٌ، أَيِّ وُقُودٍ تُحْرِقُ؟ فَاللِّسَانُ نَارٌ! عَالَمُ الإِثْمِ. هكَذَا جُعِلَ فِي أَعْضَائِنَا اللِّسَانُ، الَّذِي يُدَنِّسُ الْجِسْمَ كُلَّهُ، وَيُضْرِمُ دَائِرَةَ الْكَوْنِ، وَيُضْرَمُ مِنْ جَهَنَّمَ. لأَنَّ كُلَّ طَبْعٍ لِلْوُحُوشِ وَالطُّيُورِ وَالزَّحَّافَاتِ وَالْبَحْرِيَّاتِ يُذَلَّلُ، وَقَدْ تَذَلَّلَ لِلطَّبْعِ الْبَشَرِيِّ. وَأَمَّا اللِّسَانُ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُذَلِّلَهُ. هُوَ شَرٌّ لاَ يُضْبَطُ، مَمْلُوٌّ سُمًّا مُمِيتًا. بِهِ نُبَارِكُ اللهَ الآبَ، وَبِهِ نَلْعَنُ النَّاسَ الَّذِينَ قَدْ تَكَوَّنُوا عَلَى شِبْهِ اللهِ. مِنَ الْفَمِ الْوَاحِدِ تَخْرُجُ بَرَكَةٌ وَلَعْنَةٌ! لاَ يَصْلُحُ يَا إِخْوَتِي أَنْ تَكُونَ هذِهِ الأُمُورُ هكَذَا!" (يعقوب ٣: ٥-١٠)

إن أصعب ما يمكن السيطرة عليه هو اللسان. فحتى أولاد الله إذا خُذِلوا وأُحبطوا، فإنهم معرضون لإحداث أضرار كثيرة حولهم. فحتى أكثر التلاميذ قربًا من المسيح، مثل بطرس، قد أنكر الشخص الذي كان يعتمد عليه بشكلٍ أساسي.

إن حالة روحية مملوءة تسبيحًا وحمدًا هي وحدها قادرة على قطع الطريق على النقد والشكوى وتحويل الحزن إلى رقص ***(مز ٣٠: ١٢)***. هكذا فقط تتبدل الأقوال لتصبح إيجابية وباعثة على الحياة.

"قَالَ فِي قَلْبِهِ: «إِنَّ اللهَ قَدْ نَسِيَ. حَجَبَ وَجْهَهُ. لاَ يَرَى إِلَى الأَبَدِ.»" (مزمور ١٠: ١١)

إن يسوع هو أقوى مثال على كيف لا يدع الإنسان نفسه تحت تأثير الظروف أو الأقوال. إنه لا يخضع للفخاخ المنصوبة، بل يعرف كيف يردها على أصحابها. إن كلامه يركز على وضع الحب واحترام الآخرين في المقام الأول، مُظهِرًا شخصية أبيه السماوي الحقيقية. إنه يصرّ على وضوح الرسالة التي يقدمها.

"بَلْ لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لاَ لاَ. وَمَا زَادَ عَلَى ذلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ." (متى ٥: ٣٧)

نعرف جميعًا المَثَل القائل بأنه "لو كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب" و"فكرة جيدة تساوي ألف كلمة." لذا، فالصمت أفضل من قول الشر. لإنتاج ثمار جيدة يجب أن تكون الشجرة بصحة جيدة. لأجل أن نبني الناس بكلامنا، ينبغي أن تتحول قلوبنا من القلوب الحجرية إلى القلوب اللحمية (***حزقيال ١١: ١٩***).

"لاَ تَخْرُجْ كَلِمَةٌ رَدِيَّةٌ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ، بَلْ كُلُّ مَا كَانَ صَالِحًا لِلْبُنْيَانِ، حَسَبَ الْحَاجَةِ، كَيْ يُعْطِيَ نِعْمَةً لِلسَّامِعِينَ." (أفسس ٤: ٢٩)

ثمر الروح

"وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ. وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. إِنْ كُنَّا نَعِيشُ بِالرُّوحِ، فَلْنَسْلُكْ أَيْضًا بِحَسَبِ الرُّوحِ." (غلاطية ٥: ٢٢-٢٥)

من المستحيل أن نتكلم عن الثمار دون أن نورد هذا النص الذي يمثل علامة مميزة ورمزًا! فبعد أن قدم بولس قائمة بأعمال الجسد ***(عدد ١٩)***، فإنه يذكر ثمر الروح. إن التناقض الصارخ بين هذه وتلك يبين ما يريد الله أن يثمر به فينا. لأجل حدوث ذلك، لابد من تغيير في أعماق الإنسان أن يحدث. لكن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه بمجرد إرادة بشرية قوية بدون معونة الروح القدس. الأمر يحتاج إلى إعادة برمجة عقولنا وتجديد قلوبنا لنحصل على هذه النتيجة. لابد أن نكون قريبين من نبع المياه الحية ومستمتعين بحب الله غير المشروط لنا.

أنا شخصيًا قد عانيت كثيرًا من عدم القدرة على التكلم بشكلٍ عام ومنفتح أو أن أُعبّر عن الحب. إنني حتى اليوم لا زلت أعاني أحيانًا من تقييم الآخرين لا بناءً على ما يفعلون، بل على أساس مَن هُم في الحقيقة. لقد أدركت بمرور السنين أني ملآن بجراح عميقة أحتاج أن يشفيني الله منها، وعلى نحوٍ خاص شيئيْن: إحساس الرفض من الآخرين، والحرمان من الحب.

لقد نشأتُ وكبرتُ في إطار مدرسي وثقافي ألماني، في حين أنني كنت أتحدث الفرنسية في البيت، فاختبرتُ مبكرًا جدًا صورًا مختلفة من رفض زملائي لي. لم يكن من السهل على أهلي أن ينطقوا بكلمات تشجيع، وكانوا يجدون صعوبة في التعبير عن الحب، خصوصًا باللمسات والتصرفات. وهذه كلها مجتمعة معًا قد جعلتني هشًا وجعلتني أشك في نفسي وفي قدراتي. وقد احتجتُ لسنواتٍ من الصلاة والعمل على نفسي، بالإضافة إلى حياتي الزوجية وأسرتي، حتى أتمكن من أن أكون ما أنا عليه اليوم.

لكوني عقليًا وتحليليًا، فإنني أجد صعوبة في قول كلمات التشجيع. أيكون السبب في ذلك خوفي من ألا أجد التشجيع والتقدير من الآخرين

إن قدَّرتهم وشجَّعتهم؟ أيًا كان، فإنني اليوم أؤمن أن لا شيء أقوى من الحب غير المشروط.

"أَمَّا الآنَ فَيَثْبُتُ: الإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ، هذِهِ الثَّلاَثَةُ وَلكِنَّ أَعْظَمَهُنَّ الْمَحَبَّةُ." (١ كورنثوس ١٣: ١٣)

مواهب الروح

يؤكد يسوع أن مَن أعطى كثيرًا، يُطلَب منه كثير ***(لوقا ١٢: ٤٨)***. ينطبق الأمر نفسه على مَثل الوزنات، حيث لا يحصل الخدام على نفس رأس المال ***(متى ٢٥: ١٤)***. قد لا يبدو هذا أمرًا عادلاً، لكننا نلاحظه في حياتنا اليومية، فلسنا جميعنا متساوون في الحياة. إن نجاحنا في المجتمع يعتمد بشكلٍ كبير على إرثنا العائلي بمفهومه الواسع، وعلى إمكاناتنا المادية، وعلى صحتنا. من خلال المَثل، نرى السيد لا يدين عبيده بما أعطاهم من وزنات في البداية، بل بما عملَ كل واحد بهذه الوزنات وكيف استثمرها. نحن لسنا متساوون في الحياة، لكننا جميعًا لدينا هامشًا من التقدير والعمل يكفياننا للنجاح فيما نقوم به.

لا يستطيع أحد أن يسلبنا ما نملكه من قدرات وأحلام ومواهب، التي لا تعتمد إطلاقًا على وسائلنا أو قوة إرادتنا وبيئتنا. نحن إذًا أحرار في تنميتها واستثمارها إن أردنا. هكذا فقط يمكن أن يُقاس عملنا ويتم تقييمنا. يجب أن نقوم بذلك دون مقارنة أنفسنا بالآخرين حتى نتجنب الغيرة والحسد، فهذه لا تمثل الجواب المناسب الذي ينتظره منا رب البيت الذي منحنا الوزنات لأجل مواجهة التحديات.

إن مفهوم الوزنات والمواهب يبقى عامًا وواسعًا ويغطي عدة حقائق. إنه من الصعب في الحقيقة التمييز بين السمات الشخصية التي نولد

بها، والتي من بينها المواهب الطبيعية، وما اكتسبناه من كفاءات وقدرات من خلال سنوات من ممارسة أعمالنا، وبين المواهب الممنوحة لنا خارجيًا من الروح القدس. إن بعضها يُغني ويُثري البعض الآخر، وبعض خصائصنا الشخصية تتقوى أو تتحول تحت تأثير الروح القدس. إن النصوص الكتابية لا تعطينا رؤية وحيدة مطلقة أو واضحة لهذا الموضوع. إنها تذكر عدة قوائم متشابهة، لكن باختلافات واضحة.

يركز بولس أكثر من غيره على ما أصبح الجانب الأوضح في خدمته، أي تفعيل مواهب الروح القدس. إنه يقدم لنا أربع قوائم قد يكون البعض منها هبات طبيعية أو مكتسبة من سنوات الممارسة، أو هبات ممنوحة من الله.

رومية ١٢: ٧	١ كورنثوس ١٢: ٧-١١	١ كورنثوس ١٢: ٢٨-٣٠	أفسس ٤: ١١	١ بطرس ٤: ٩-١١
"أَمْ خِدْمَةٌ فَفِي الْخِدْمَةِ، أَمِ الْمُعَلِّمُ فَفِي التَّعْلِيمِ."	"وَلكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إِظْهَارُ الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ. فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمَ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمَ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ، وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ، وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ، وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ،	"فَوَضَعَ اللهُ أُنَاسًا فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً، ثَانِيًا أَنْبِيَاءَ، ثَالِثًا مُعَلِّمِينَ، ثُمَّ قُوَّاتٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ، أَعْوَانًا، تَدَابِيرَ، وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ. أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ رُسُلٌ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ أَنْبِيَاءُ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ مُعَلِّمُونَ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ أَصْحَابُ قُوَّاتٍ؟ أَلَعَلَّ لِلْجَمِيعِ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ؟ أَلَعَلَّ الْجَمِيعَ يُتَرْجِمُونَ؟"	"وَهُوَ أَعْطَى الْبَعْضَ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً، وَالْبَعْضَ أَنْبِيَاءَ، وَالْبَعْضَ مُبَشِّرِينَ، وَالْبَعْضَ رُعَاةً وَمُعَلِّمِينَ."	"كُونُوا مُضِيفِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلاَ دَمْدَمَةٍ. لِيَكُنْ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ مَا أَخَذَ مَوْهِبَةً، يَخْدِمُ بِهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا، كَوُكَلاَءَ صَالِحِينَ عَلَى نِعْمَةِ اللهِ الْمُتَنَوِّعَةِ. إِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فَكَأَقْوَالِ اللهِ. وَإِنْ كَانَ يَخْدِمُ أَحَدٌ فَكَأَنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ يَمْنَحُهَا

	وَلآخَرَ تَرْجَمَةَ أَلْسِنَةٍ. وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ."			اللهُ، لِكَيْ يَتَمَجَّدَ اللهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ."

مـا يُلفـت النظـر فـي هـذه القـوائم هـو تباينهـا. إن الترتيـب الزمنـي للمصطلحات ليس متطابقًا، كما أن التمييز بين الخدمة والمواهب ليس واضحًا. وهو أمر محير، عندما يصدر من بولس الشخص العقلاني المنطقي والذي، لسنوتٍ عدة، قد أقام مسئولين محليين للخدمة.

إنه يعطي أهمية قصوى لدور الرسول والنبي، لكن يظل هذا أيضًا بحاجة إلى تأكيد. إنه في مناسباتٍ عديدة يصف نفسه بالرسول **(١ كورنثوس ١٥: ٩)**، لكنه يمارس بشكلٍ منتظم خدمته كنبي ومبشر وكمرشد وراعٍ.

ما يجمع الخصائص الموجودة بهذه القوائم هي التسمية. فإن بولس في كل الحالات يستخدم كلمة مواهب، وهدفها هو بنيان الكنيسة ونموها الروحي وتحبيذ الترابط المجتمعي ونمو التبشير. ويبدو كذلك أن هذه القوائم ليست شاملة. فمن الممكن بسهولة إضافة مواهب أخرى، من خلال مواقف أخرى.

"فَأَنْوَاعُ مَوَاهِبَ مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ الرُّوحَ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ خِدَمٍ مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ أَعْمَالٍ مَوْجُودَةٌ، وَلكِنَّ اللهَ وَاحِدٌ، الَّذِي يَعْمَلُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. وَلكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إِظْهَارُ الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ." (١ كورنثوس ١٢: ٤-٧)

إن الرسول بولس يصرّ على دور الروح القدس وفكرة الجسد، مستخدمًا نفس المصطلحات لنشاطات مختلفة عن بعضها البعض. من هذا الدور تنبع الكفاءة بشرط أن تُمارَس في قلب الكنيسة – جسد المسيح – بواسطة إنسان يحمل المسيح في قلبه، متغاضيًا عن الجانب الجسدي مستفيدًا من البُعد الروحي. إن مَن يُظهِر المواهب أداة في يد الروح القدس لبنيان الآخرين؛ وليس هناك أهمية إن كان واعظًا أو يشغل أقل الأعمال أهمية.

من جانبي، أُفضِّل أن أستنتج من خلال هذا التحليل أن قائمة مواهب الروح القدس ليست عقائدية أو نهائية. هناك لا محدودية للمواهب والخدمات، تمامًا كما يوجد تعددًا فيمَن يعملون لحساب المسيح ممَن يستخدمهم ويثمر بهم الروح القدس في قلب الكنيسة. لكن وبشكلٍ مثير، لا يقاوم بولس إغراء وضع موهبة ما أعلى من باقي المواهب.

في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، يركز بولس على موهبة النبوة. فهذه تبني الكنيسة وتشجعها وتواسيها. إن غاية الرسول هنا رعوية بشكلٍ رئيسي، أي تقوية وتوحيد الكنيسة الوليدة. لكنه بإشارته على هذه الموهبة ذات الطباع الرؤيوي، فهو يؤكد على القدرة على الإصغاء للروح القدس وفهم مقاصده وأن يكون لدى الإنسان القدرة على توصيل كلمته. هكذا، يتقوى البُعد الروحي للكنيسة والتلامس مع البُعد العاطفي، وليس كما هو الحال مع الليتورچيات العقلية التي تكون الجزء الأعظم من مناسباتنا.

"اِتْبَعُوا الْمَحَبَّةَ، وَلكِنْ جِدُّوا لِلْمَوَاهِبِ الرُّوحِيَّةِ، وَبِالأَوْلَى أَنْ تَتَنَبَّأُوا. لأَنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانٍ لاَ يُكَلِّمُ النَّاسَ بَلِ اللهَ، لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَعُ، وَلكِنَّهُ بِالرُّوحِ يَتَكَلَّمُ بِأَسْرَارٍ. وَأَمَّا مَنْ يَتَنَبَّأُ، فَيُكَلِّمُ النَّاسَ بِبُنْيَانٍ وَوَعْظٍ وَتَسْلِيَةٍ." (١ كورنثوس ١٤: ١-٣)

الجزء الثامن: الإنسان الروحي الناضج

كان هدف هذا العمل هو أن نشبه في النهاية شجرة عظيمة وقوية وقادرة على مواجهة كل تجربة. إن الأمر يتعلق بتطور شخصي وروحي بعيد المدى. يمر الطفل وهو يكبر بمراحل نمو ضرورية بعضها داخلي مثل القدرات العقلية، وأخرى تُرَى بالعين المجردة عندما يبدأ في المشي والتعبير عن نفسه بوضوح ويزداد طوله بضعة سنتيمترات فجأة. هكذا، تمر الأشجار أيضًا بمراحل نموها. وهذه تعتمد جزئيًا على المواسم والظروف الجوية. يمكننا أن نتعرف على عمر الشجرة من عدد الحلقات الموجودة في جذعها عند قطعه. بعض هذه الحلقات يكون منتظمًا والآخر أوسع حسب النمو الذي مرت به الشجرة.

إن الشخص النفسي والعقلي والعاطفي يمر بمراحل تشبه تلك. فالشخص البالغ من العمر ٥٠ أو ٨٠ سنة لا يتصرف بنفس طريقة مَن عمره ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ سنة. أتذكر أعمامي الذين كانوا في شبابهم من الهيبيز أو ماركسيون أو ثوريون أو من متعاطي المخدرات، لكنهم صاروا أعقل عندما كبروا وصاروا من الطبقة العامة أو صار لديهم أطفال ويعيشون اليوم حياة تقليدية.

الإنسان الناضج

"لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَنَاوَلُ اللَّبَنَ هُوَ عَدِيمُ الْخِبْرَةِ فِي كَلاَمِ الْبِرِّ لأَنَّهُ طِفْلٌ."
(عبرانيين ٥: ١٣)

عند ولادة طفل، تُنتِج الأم لبن السرسوب قبل مجيء اللبن الطبيعي، لأن الطفل حديث الولادة لا يكون قادرًا على أخذ اللبن الطبيعي الدسِم

الغني. ولخير الأم لا تظهر الأسنان إلا بعد عدة شهور. وبفضل تلك الأسنان يصير الطفل قادرًا على تناول الأطعمة الجافة. وهكذا الحال حتى سن البلوغ، يمر الإنسان بمراحل نمو متعددة. ومع ذلك، فكثيرًا ما يتصرف أشخاص بالغين بطريقة طفولية، لعدم نموهم بطريقة صحيحة. ربما يكون سبب ذلك نوع من العجز أو لعيْبٍ في التكوين النفسي للإنسان.

إن بولس الرسول ليس الوحيد الذي يمثل النضج الروحي بمراحل نمو الإنسان الطبيعية. إنه يلاحظ كيف أن الكثير من المسيحيين يظلون متجمدين عند مرحلة يحتاجون فيها لمَن يُحضِر لهم الطعام كلما جاعوا غير قادرين على إدراك حاجات الآخرين أيضًا. يشجعنا بولس ألا نقنع باللبن، بل أن ننمو لنستطيع هضم الطعام القوي. إن وجود الغيرة والتحزب في قلب الكنيسة يبرهن على غياب النضج الروحي.

"وَأَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُكَلِّمَكُمْ كَرُوحِيِّينَ، بَلْ كَجَسَدِيِّينَ كَأَطْفَالٍ فِي الْمَسِيحِ، سَقَيْتُكُمْ لَبَنًا لاَ طَعَامًا، لأَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا بَعْدُ تَسْتَطِيعُونَ، بَلِ الآنَ أَيْضًا لاَ تَسْتَطِيعُونَ، لأَنَّكُمْ بَعْدُ جَسَدِيُّونَ. فَإِنَّهُ إِذْ فِيكُمْ حَسَدٌ وَخِصَامٌ وَانْشِقَاقٌ، أَلَسْتُمْ جَسَدِيِّينَ وَتَسْلُكُونَ بِحَسَبِ الْبَشَرِ؟" (١ كورنثوس ٣: ١-٣)

تشجعنا كلماته وحياة الصلاة والإصغاء لصوت الروح القدس ألا نتوقف في الطريق، بل أن نُعمِّق في داخلنا مبادئ الحياة الروحية. إن حياة الإيمان تبدأ بالمعمودية ثم قبول الروح القدس، كما أن وعْينا بوجود يسوع إلى جانبنا والسلوك اليومي في الروح القدس، يمكنانا من معرفة الله كأبٍ ومن النمو في الإيمان. لقد تبدلت حياة بولس بشكلٍ جذري يوم التقى بيسوع. لقد هجر معتقداته القديمة وأموره المادية لأجل رسالة ستستغرق منه كل الوقت. ثم بعد عشر سنوات من إيمانه،

مرَّ بخبرةٍ جديدة قلبَت كيانه كله. لقد أُخِذَ بالروح في رؤيا فتحت عينيْه على حقائق سماوية ***(٢ كورنثوس ١٢ : ٢)***. إن الحياة الروحية زاخرة بكنوزٍ بلا عدد يتعين اكتشافها خطوة بخطوة.

لقد استخرج بولس من خلال الأبعاد الروحية للمعارك التي تعيَّن عليه اجتيازها يوميًا، إرشادات أثْرَت فكره اللاهوتي. كان يعمل ما بوسعه للشهادة عن إيمانه وتشجيع المؤمنين على النمو باضطراد. لقد كان هو نفسه واحدًا من أعمق الناس إيمانًا بالمسيح، فكان في مكانٍ يسمح له بتقدير حجم ومدى ضخامة التغييرات اللازمة لحياةٍ ما لأجل نموها الصحيح، وكان يتمنى أن يعلن ذلك ويجعله واضحًا للجميع.

"الَّذِينَ نَحْنُ أَيْضًا جَمِيعًا تَصَرَّفْنَا قَبْلاً بَيْنَهُمْ فِي شَهَوَاتِ جَسَدِنَا، عَامِلِينَ مَشِيئَاتِ الْجَسَدِ وَالأَفْكَارِ، وَكُنَّا بِالطَّبِيعَةِ أَبْنَاءَ الْغَضَبِ كَالْبَاقِينَ أَيْضًا، اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ - بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ." (أفسس ٢ : ٣-٥)

"فَأَقُولُ هذَا وَأَشْهَدُ فِي الرَّبِّ: أَنْ لاَ تَسْلُكُوا فِي مَا بَعْدُ كَمَا يَسْلُكُ سَائِرُ الأُمَمِ أَيْضًا بِبُطْلِ ذِهْنِهِمْ، إِذْ هُمْ مُظْلِمُو الْفِكْرِ، وَمُتَجَنِّبُونَ عَنْ حَيَاةِ اللهِ لِسَبَبِ الْجَهْلِ الَّذِي فِيهِمْ بِسَبَبِ غِلاَظَةِ قُلُوبِهِمْ. اَلَّذِينَ – إِذْ هُمْ قَدْ فَقَدُوا الْحِسَّ – أَسْلَمُوا نُفُوسَهُمْ لِلدَّعَارَةِ لِيَعْمَلُوا كُلَّ نَجَاسَةٍ فِي الطَّمَعِ.

وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَمْ تَتَعَلَّمُوا الْمَسِيحَ هكَذَا، إِنْ كُنْتُمْ قَدْ سَمِعْتُمُوهُ وَعُلِّمْتُمْ فِيهِ كَمَا هُوَ حَقٌّ فِي يَسُوعَ، أَنْ تَخْلَعُوا مِنْ جِهَةِ التَّصَرُّفِ السَّابِقِ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ الْفَاسِدَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ الْغُرُورِ، وَتَتَجَدَّدُوا بِرُوحِ ذِهْنِكُمْ، وَتَلْبَسُوا الإِنْسَانَ الْجَدِيدَ الْمَخْلُوقَ بِحَسَبِ اللهِ فِي الْبِرِّ وَقَدَاسَةِ الْحَقِّ." (أفسس ٤ : ١٧-٢٤)

في إحدى السنين، بينما كنت عائدًا مُحبَطًا من مقابلة عمل، تكلم الله إليَّ من خلال صورة اعتبرتها إعلانًا شخصيًا. كنت بلا عمل، أو في مرحلة جافة من حياتي، آملاً في فرصة عمل ومنتظرًا أن أسمع صوت الله لمستقبلي. كنت أبحث عن عمل، لكنني كنت أيضًا أتمنى أن أُنمِّي نشاطي الروحي الذي بدأ يطفو إلى السطح عقب كتابي الذي ألَّفته عن بولس الرسول وأيضًا بعد عملي مع مسيحيي مصر.

فجأة، انطبعَت صورة معينة على روحي كأنها دليل دافع: إنك لا زلت مثل يرقة، لكنك في سبيلك لأن تصبح فراشة. أنت الآن لا زلت داخل الشرنقة، غير قادر على إعطاء وإظهار ملء شخصيتك، لكنك قريبًا جدًا ستخرج منها وتفرد جناحيْك. إن الوقت الذي ستجد فيه نفسك في بُعدٍ جديد مع آمالٍ جديدة، قريب جدًا.

لقد مرَّت عدة أشهر، وبدأتُ ألاحظ بشكلٍ فعال كم تحررتُ داخليًا، سواء في الحديث المُوجَّه إلى جمعٍ، أو في مواجهة تحديات جديدة. أصبحتُ أحس بالضغط الخارجي يقل، وبقدرتي على التحكم في المواقف المختلفة، خصوصًا تلك التي تخرج عن الإطار المعتاد.

منذ سنتيْن، وخلال فترة عبادة، تكلم الله ألـيَّ أيضًا عبر رسالة من قصة بطرس سائرًا على المياه نحو يسوع. فطالما أبقى بطرس نظره مُثبَّتًا على يسوع، كان يسير بلا مشقة. لكن ما إن نظر إلى أسفل حتى تملَّكه الخوف وبدأ يغرق. لقد بدأ يعتبر للعناصر المحيطة به، والعمق الموجود أسفله؛ فبدأ يغرق.

إنني عندما أُثبِّت عيناي على المسيح، أعيش نفس الاختبار: فمهما كانت الظروف الخارجية، سواء عائلية أو مهنية أو شخصية أو مادية، فإن يسوع إلى جانبي. إنه يقويني ويشجعني.

نحتاج جميعًا أن نتعلم أن نخرج من منطقة راحتنا وأماننا. بهذا فقط يمكننا أن نكبر. هناك أماكن ومواقف كثيرة تبعث الخوف فينا، فندخل بسببها إلى حالةٍ من الارتباك والهَم. لكن إن علِمنا أن يسوع بجانبنا، فليس هنالك ما نخشاه. بين المنطقتيْن، هناك منطقة التأثير. إنها منطقة ثمينة من التجربة والتطبيق والنمو. كلما أوسعنا آفاقنا، كلما قبِلنا أن ندخل إلى مناطقٍ تبدو للوهلة الأولى من المستحيل عبورها، وعندها ننمو في الحكمة والقامة.

هناك الضغوط الجيدة والضغوط السيئة. الضغوط السيئة تعوقنا؛ إنها تقطع عنا السُبل المتاحة لنا عادةً وتحرمنا منها مؤقتًا. وليس فيها أي فائدة لأجسادنا. لكن الضغوط الجيدة هامة لنمونا. لأنها تمنحنا الطاقة التي تنقصنا عادةً، لمواجهة المراحل الدقيقة أو الصعبة في حياتنا. عندما يكون علينا أن نجتاز القمم العالية، يشجعنا الضغط الجيد على المضي قدمًا حتى تحقيق الهدف ويحمينا في الوقت نفسه من القيام بخطوةٍ خاطئة.

لقد شجعني الله خلال الأعوام الماضية على تعلم قيادة السفن الشراعية. إن المعرفة التدريجية، ثم التمكن والتحكم في العناصر مثل الماء والرياح، كانت مفيدة جدًا لي في نموي الشخصي. على الماء، ليست هناك مكابح مثلما توجد على اليابسة. من المستحيل أو توقف قاربًا بشكلٍ فجائي. حتى حين نلقي بالمرساة، يظل القارب يتأرجح بفعل الرياح.

كانت هذه الحركات تضايقني وتقلقني. قادني الله إلى التحكم في قاربٍ كبير الحجم، وقد أفادني ذلك جدًا لأنه أخرجني من حيز أماني وتوسيع منطقة تأثيري وتحجيم منطقة الارتباك. كل ذلك زادني ثقة في نفسي بشكلٍ كبير جدًا.

الإنسان الروحي

"فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ. وَلاَ تُشَاكِلُوا هذَا الدَّهْرَ، بَلْ تَغَيَّرُوا عَنْ شَكْلِكُمْ بِتَجْدِيدِ أَذْهَانِكُمْ، لِتَخْتَبِرُوا مَا هِيَ إِرَادَةُ اللهِ: الصَّالِحَةُ الْمَرْضِيَّةُ الْكَامِلَةُ. فَإِنِّي أَقُولُ بِالنِّعْمَةِ الْمُعْطَاةِ لِي، لِكُلِّ مَنْ هُوَ بَيْنَكُمْ: أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ، بَلْ يَرْتَئِيَ إِلَى التَّعَقُّلِ، كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِقْدَارًا مِنَ الإِيمَانِ." (رومية ١٢ : ١-٣)

إن التحول الروحي يمر عبر الذهن الجديد الذي من خلاله نسمع صوت الله. فنبدأ ندرك مشيئة الله لحياتنا. إن قلقنا بشأن الغد يصبح بمثابة ضغط سيئ. فننطوي على ذواتنا، غير قادرين على رؤية الاختيارات المتاحة لنا، ويضيق أفقنا جدًا.

لكن الله من جانبٍ آخر، يودّ أن يفتح عيوننا لنرى الأشياء بمنظورٍ مختلف. إن الأمور التي تقلقنا وتبدو ضخمة لعيوننا تبدو صغيرة إن نظرنا إليها من السماء أو من مكانٍ بعيد. إن هذا ما يعنيه يوحنا الرسول حين يقول رأيتُ السماء مفتوحة ***(رؤيا ٤ : ١)***. يستخدم يسوع مَثَل الكرمة ليشرح لتلاميذه عن الأشخاص الذين ينمون في الإيمان. كل شيء إذًا يعتمد على القُرب والارتباط بالمسيح.

"أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ، لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا. إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجًا كَالْغُصْنِ، فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ، فَيَحْتَرِقُ. إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كَلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ. بِهذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي: أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلاَمِيذِي. كَمَا أَحَبَّنِي الآبُ كَذلِكَ أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. اثْبُتُوا فِي مَحَبَّتِي. إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ

فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِكَيْ يَثْبُتَ فَرَحِي فِيكُمْ وَيُكْمَلَ فَرَحُكُمْ." (يوحنا ١٥: ٥-١١)

على عكس ما هو شائع، فإن مبادرة نمونا لا تعتمد في المقام الأول علينا. إنه هو مَن يدعونا لخدمته، وحريتنا هي أن نستجيب لدعوته ونطيعها. هذا أحد أسرار الإيمان. لماذا سمعتُ أنا صوته إذًا في سن الحادية عشرة؟ لماذا وجَّه إليَّ هذه الدعوة؟ ولماذا تنفتح لي اليوم أبواب في الشرق الأوسط لم تكن مفتوحة قبلاً؟

"لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ، وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ، وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ، لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي." (يوحنا ١٥: ١٦)

إن الإنسان الروحي يدخل في أعماقٍ جديدة. إنه يبدأ في رؤية العالم بعينيّ يسوع. إن الصلاة، وخصوصًا التسبيح، يصبحان سلاحه المفضل، لأن الإعلانات والبصيرة الروحية ينكشفان من خلالها بالروح القدس. كما أن مصادر غير متوقعة من الشفاء والتحرير ينبعان منهما أيضًا. من خلال التسبيح والصلاة تُكسَب المعارك الروحية. على مثال موسى بيديه المرفوعتيْن، ينبغي أن تُكسَب هذه المعارك أولاً في السماويات من خلال الصلاة والتشفع.

غير أن المعارك بما فيها المعارك الروحية، تُكسَب من خلال حرب. فبدون مخاطرة لا توجد مكاسب. كلما كانت المعركة صعبة، كلما زادت حلاوة النصر. لكن النجاح والنصرة لا يأتيان فجأة. إن الأمراض التي نصلي من أجل شفائها لا تُستجاب جميعها، ولسنا للأسف قادرين على فهم أسرار حكمة الله لندرك منطق معادلات القوة ولا الحكمة وراء ما يُستجاب وما لا يُستجاب.

إن الحميمية الروحية تُبنَى رويدًا رويدًا. ينبغي أن نتعلم كيفية فك الشفرات وكيفية استخدام الإيمان. مثل طفل يذهب إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة، فمن أجل النمو في الإيمان نحتاج أن ندخل مدرسة الروح القدس وأن نتعلم كيف نلبس الأسلحة الروحية ***(أفسس ٦)***. بممارسة الإيمان وخبرة القتال، يقل الإحساس بثقل سلاح الله الذي نرتديه ونتقن استخدام كل أداة منه: الحق، العدل، الاستعداد، الإيمان، الخلاص، وكلمة الله.

"أَخِيرًا يَا إِخْوَتِي تَقَوَّوْا فِي الرَّبِّ وَفِي شِدَّةِ قُوَّتِهِ. الْبَسُوا سِلاَحَ اللهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تَثْبُتُوا ضِدَّ مَكَايِدِ إِبْلِيسَ. فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ احْمِلُوا سِلاَحَ اللهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تُقَاوِمُوا فِي الْيَوْمِ الشِّرِّيرِ، وَبَعْدَ أَنْ تُتَمِّمُوا كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَثْبُتُوا." (أفسس ٦: ١٠-١٣)

مواجهة التجارب

"اُذْكُرُوا الْكَلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلاَمَكُمْ." (يوحنا ١٥: ٢٠)

لم يعِدنا يسوع قط بحياةٍ سهلة. بل على العكس، إنه يكرر علينا مرارًا كيف أن حياة الإيمان تكون لها تبعات. إن كان هو قد مات مظلومًا، فإن الأمر ذاته سيحدث لمسيحيين كثيرين سيلاقون نفس المصير. هذا هو ثمن الإيمان الذي نعيشه وننشره. بالفعل، فإن يسوع لا يُفرَض على الناس بالقوة. لم تنجح الثورة الشيوعية في تحقيق العدالة. كذلك، فإن الحرية الروحية لا يمكن نوالها بقراراتٍ سلطوية. إن التحول الداخلي يمر عبر القبول الحُر للغفران.

في العظة على الجبل، يُذكِّرنا يسوع إلى أي حد كلام الإنجيل يكون مُلزِمًا ***(متى ٥-٧)***. ذلك يبدأ بالتطويبات، تلك العبارات الأيقونية التي تثبت التضاد الموجود في الإيمان. فتوضع السعادة مع الفقر، الدموع، الشتائم، والاضطهاد. إنه هكذا فقط يصير المسيحيون ملحًا للأرض ونورًا للعالم، لأن التناقض يبرز قوة المعنى. إن طعم ذرَّة ملح على طرف اللسان لا يمكن نسيانه بسرعة. كذلك الحال بالنسبة لشعاع نور في كهف مظلم، لأن كل محيطه يستضيء بذلك الشعاع.

"طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ. اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ." (متى ٥: ١٠-١٢)

لقد اختبرنا جميعًا في لحظةٍ معينة من وجودنا، كيف تُعلِّمنا التجارب أكثر من النجاحات سهلة المنال. لقد أدركتُ أخيرًا كيف أن الله يهتم بعلاقتي الحميمة به أكثر مما أصنعه لأجله. إنه فقط في اللحظة التي أتلامس فيها معه تصبح شهادتي لأجله مثمرة.

يسجل نِك ريبكين في كتابه خبراته التي عاشها في الصومال، وكذلك شهادة الكثيرين الذين قد زاملهم من دولٍ شمولية. إنه عندما يناقش مُنشقًّا قد أمضى سنوات عديدة بالسجن، فإنه يندهش مما يسمعه منه. ففي بلادٍ كثيرة يندهش المسيحيون من أن يمارس الناس إيمانهم دون أن يُضطهَدوا أو يُعذَّبوا.

يا نِك، إننا لم نكتب كتبًا ولا أفلامًا تحكي قصتنا التي سمعتها أنت لتوك. إن الاضطهاد هو كالشمس التي تشرق من الشرق. أي أن هذا أمر يحدث طوال الوقت. لا شيء غير اعتيادي أو غير متوقع. إن

اضطهادنا بسبب إيماننا قد كان ويكون وسيكون دومًا جزءًا عاديًا من حياتنا.[٢٦]

عندما علِمَ صديقي المرسل برغبتي في زيارة صعيد مصر، فقد حذَّرني قائلاً: "إن مضيت إلى هذه المنطقة بدون حماية رسمية، فإنني لا أضمن سلامتك." بل قال لي قبل زيارتي الثالثة لصعيد مصر أن أُنذِر معارفي والقريبين مني بأنني قد لا أعود من هذه الزيارة. لكني عرفت أن الخوف ليس من الله، وأن ملكوت الله نما بفضل أناس مثل بولس لا يخجلون من إعلان الإنجيل والتبشير به مهما كانت النتائج ***(رومية ١: ١٦).***

***"مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ؟ أَشِدَّةٌ أَمْ ضَيْقٌ أَمِ اضْطِهَادٌ أَمْ جُوعٌ أَمْ عُرْيٌ أَمْ خَطَرٌ أَمْ سَيْفٌ؟ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «إِنَّنَا مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ. قَدْ حُسِبْنَا مِثْلَ غَنَمٍ لِلذَّبْحِ.» وَلكِنَّنَا فِي هذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا. فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتٍ، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ، وَلاَ خَلِيقَةً أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا." (رومية ٨: ٣٥-٣٩)*

"لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟ فَلاَ تَهْتَمُّوا لِلْغَدِ، لأَنَّ الْغَدَ يَهْتَمُّ بِمَا لِنَفْسِهِ. يَكْفِي الْيَوْمَ شَرُّهُ." (متى ٦: ٢٥، ٣٤)

[٢٦] نِك ريبكين، طرقي ليست كطرقكم، إكسِلسيس، ٢٠١٣، ص ١٦٤.

الخلاصة

"لم يحقق أحد شيئًا عاديًا، ما لم يكن يرغب في تحقيق شيء غير عادي." (مؤلف مجهول)

ليست الحياة نهرًا ساكنًا. إنها مكونة من أمواج وأوقات أزمات وفترات نمو قوية. رأينا من مثال الشجرة أهمية ألا نتوقف في الطريق، بل المضي قدمًا بمثابرة نحو اكتشاف جوانب جديدة لحياة الإيمان وللنمو في استخدام الأدوات التي يضعها الله بين أيدينا. كما تستمد الشجرة غذاءها من الأرض التي تحملها وتُؤمِّن وجودها، من خلال جذور قوية وعميقة، ووفرة مياه، كذلك فإن المؤمن يعتمد تمامًا على الله للنمو الروحي وللإثمار. إن الجذور لن تفيد شيئًا ما لم يكن هنالك جذع للشجرة أو إن كانت لا تنمو. إن النمو يمر حتمًا عبر التعرض للعالم المحيط بنا. الشجرة السليمة لا تخشى أن تمتد وأن تأخذ مكانها بإنتاج أغصان تشغل أقصى مساحة ممكنة. إنها تسعى لنيْل أكبر قدر ممكن من نور الشمس حتى تُحضِر أوراقها وحتى تُنتِج الحد الأقصى من الأكسچين.

كما رأينا كيف أن الموقف الإيجابي والتسبيح في جميع الظروف هو المحرك والدافع نحو حياة روحية مباركة. فبدلاً من أن نحمل الهَم ونلوم الله لأجل كل تجارب الحياة، فإن تعلُّم كيف نشكره لأجل ما يختاره لنا والبحث عن تنفيذ مشيئته لحياتنا، هو سر النجاح. لكن الحياة الروحية هي طريق شخصي فردي. إنها تهدف إلى نمو الأوراق والثمار التي تبعث على الشفاء والبهجة. إن أمر يسوع أن نذهب إلى الأمم ونتلمذهم ليس كلامًا مرسلاً في الفضاء، بل إنه يصنع رجالاً ونساءً ويؤهلهم ليكونوا رسلاً قادرين أن يتكلموا مع أي جمهور. إنه يمنحهم قوة الروح القدس حتى يصيروا قادرين على التكلم بكلمات

التشجيع والشفاء. إن سر النجاح هو أن نحيا أحرارًا. أحرارًا من الخوف والشك وتأثيرات الشر الجسدية والروحية. أحرارًا حتى من الموت، بما أن الحياة تبدأ هنا على الأرض عندما يتجذر فينا ملكوت الله. لا شيء من الدينونة على السائرين في طريق الخلاص، بل حياة في محضر الله، في هيكله: حياة تمتد وتستمر في الأبدية.

لسنواتٍ، فكرتُ في التحكم في حياتي. مثل لاعبي السيرك، ألقيتُ تحتي وحولي شبكة حماية لأقي نفسي من الإصابة عند السقوط. مددتُ فروعي بفطنة وأنا أراقب كيف سيكون رد فعل الآخرين. كنت خجولاً وذكيًا، فاعتقدتُ أنني قد قمت بمخاطراتٍ محسوبة. كنت قبلما أوقِّع على عقدٍ ما، لا أقدر أن أنام جيدًا، مفكرًا في أي للمخاطر قد أقابل؟ فكنت أسعى لأن تتلقفني الشبكة إن سقطتُ.

لقد أظهر الله لي كم كنت مخطئًا. فكيف كنت سأثق بالآخرين وأنا لا أثق في الله ولا في نفسي؟ رويدًا رويدًا، علمت كيف أرخي يديَّ، وأن أدع أمري كله لله، وأن أقوم بدوري دون أن تكون لي أنا القيادة. صرتُ حرًا، وأحسستُ بالروح القدس يأخذ زمام القيادة. صرتُ أيضًا قادرًا على أن أترك الإلهام والأفكار تحملني دون أن أكون عائقًا لها. لم أعُد أحلم لحياتي، بل أصبحتُ أعيش أحلامي. أن أصغي لأمنياتي، وأن أحقق رؤاي وأترك مجالاً للإلهام والتطلعات التي أتطلع إليها، هذه هي تحدياتي الجديدة.

لم تعُد هناك حاجة لشبكة حماية، فأنا مربوط بحبل مُثبَّتًا جيدًا في السماء. إن الله يمسك بي، ولا شيء سيحدث دون أن يكون هو قد حدَّد زمانه. إنني أحس به يمسكني جيدًا ويحملني بصلاحه وجوده، مثلما يربطون لاعبي الجمباز أو القفز العالي بحبل صلب متين من أجل تأمينهم. فلماذا أخاف إذًا والرب متكلي وسندي؟

قائمة المراجع

- Bonhoeffer Dietrich, L’éthique, Labor et Fides, 1962.
- Bunyon John, Le voyage du pèlerin, 1678.
- Carothers Merlin, De la prison à la louange, Foi et Victoire, 1984.
- Carothers Merlin, Puissance de la louange, Foi et Victoire, 2013.
- Chapman Gary, Les langages de l’amour, Farel, 2002.
- Csikszentmihalyi Mihaly, Vivre, La psychologie du bonheur, Laffont, 2005.
- Csikszentmihalyi Mihaly, Mieux vivre, Laffont, 2005.
- Goleman Daniel, L’intelligence émotionnelle au travail, Pearson, 2008.
- Kübler-Ross Elisabeth, Les derniers instants de la vie, Labor et Fides, 1987.
- Kourilsky Françoise, Du désir au plaisir de changer, Dunod, 2008.
- Lang Ernest, 10x libre, Presses Bibliques Universitaires, 1978.
- Payne Leanne, Crise de la masculinité, Raphael, 1994.
- Rochat Didier, Paul stratège exemplaire, RDF, 2017.
- Watson Jean, Le voyage du petit pèlerin, La Colline, 1957.

إصدارات أجابيه للنشر

م	اسم الكتاب	المؤلف
١	الصلاة عبر أبواب الزمن.	د. أبو بَكُــو.
٢	الفوز بالمرتفعات.	د. أبو بَكُــو.
٣	البحث عن القوة الروحية.	ه. أ. لويس.
٤	تغيير جذري.	داڤيد بلات.
٥	ويوجد أيضاً مكان (الجزء الأول).	د. بول تورنييه.
٦	ويوجد أيضاً مكان (الجزء الثاني).	د. بول تورنييه.
٧	الصلاة الفعالة.	د. بيني موسترت.
٨	حياتك رحلة واحدة.	زلدس ستينكامب.
٩	لغات المحبة الخمس عند الأطفال.	جاري تشابمان & روس كامبل.
١٠	سيف الروح.	إستيل برينك & إليزابيث چوردان.
١١	الغفران الكامل.	آر. تي. كيندال.
١٢	مبدأ الـ ١٨ بوصة.	مايك بيرنارد.
١٣	غيِّر عالمك بالصلاة.	د. بيني موسترت.
١٤	شخصه سباني – مَن هو يسوع؟	لاري هاكمان.
١٥	الرقص مع الجِمال.	مايك بيرنارد.
١٦	محبة ليس لها مثيل!	كين سيمنجتن.
١٧	أسرار النجاح الروحي.	بول إيستابروكس.
١٨	لغات المحبة الخمس للمراهقين.	جاري تشابمان.

١٩	٧ أسئلة جوهرية.	د. أبو بَكُو.
٢٠	في كواليس المعجزة.	چـان – لوك تراكسيل.
٢١	نحو زواج أفضل.	جاري تشابمان.
٢٢	نظرة جديدة على الخوف.	دان باومان.
٢٣	الغفران الكامل (الكتاب الثاني).	آر. تي. كيندال.
٢٤	بولس المثال الإستراتيجي.	ديديه روشا.
٢٥	سماع صوت الله.	إلزا ماير.
٢٦	أمور مختصة بالأزمنة الأخيرة.	د. نبيل صبحي رومان.
٢٧	مفتاح الحد المتوقع منك.	كاتي سوزا.
٢٨	اغفر انسى اثمر.	چون لويس.
٢٩	دليل تدريب المشورة الزوجية (كتاب ١).	ريك بينسون.
٣٠	الصلاة بقلب مفتوح.	ريمى شاربينيى.
٣١	صلاة أبناء الملكوت.	د. أبو بَكُـــو.
٣٢	من الداخل إلى الخارج.	بروس هيلز.
٣٣	دليل تدريب المشورة الزوجية (كتاب ٢)	ريك بينسون.